obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

بدَايَةُ القِصَّةِ.. وَالآراء المعَاصِرَة لهَا

obeikandl.com

obeikandl.com

القصة الأولى:

لم يكد ذلك الإنسان الأول يمد خطاه على هذه الأرض، بعد أن تطامنت لسعيه، فوق بقاعها المتباينة الحرارة والخصوبة، والمتعددة المجاهل والمعالم – حتى نشط في رعايته – بحكمة الخلق ورحمة الخالق – ثلاثة أوصياء، في صورة ثلاثة قوانين تحكم أبعاد حركته؛ وتلائم بين قدراته وبين بيئته، بينما هي تدفعه من ظهره ليعيش، وتنفذ إليه من حواسه ليفكر.

هذه القوانين الثلاثة تكمن فيه وتظهر له في شكل حاجات أساسية على الوجه التالي:

1- قانون حفظ الذات... ويظهر في حاجة الإنسان إلى الماء والطعام.

2- قانون حفظ النوع ... ويظهر في حاجته إلى المأوى والأسرة.

3- قانون حفظ النمو والتطور... ويظهر في حاجته إلى اللغة والعلم والدين.

ففي حاجتين من ثلاث حاجات اشترك الإنسان مع جميع الأحياء المرافقة له على الأرض، وهي الطعام والنسل، أي حفظ الذات وحفظ النوع. وأما الحاجة الثالثة وهي اللغة والعلم والدين فقد تميز بها الإنسان الذي انفرد بعقله، وبمسئوليته عن اختيار منهجه في قيادة الأشياء والأحياء المحيطة به.

لقد أتيح إذن للإنسان بقوة القانون الثالث أن يتجاوز كل رفاقه على الأرض في مواقعها الثابتة، وأن ينفرد عنها ببناء حياته الفكرية والاجتماعية والتاريخية، وأن ينمي هذه الحياة ويطورها عن طريق فهم أكثر للطبيعة، وعلم أرشد بقوانينها، يكشف بهما عن نظامها وطاقاتها، ويخترع من الأدوات والنظم ما يسيطر به على حركتها، وما يحقق له –

obeikandl.com

وفق عقيدته وأهدافه – مزيدًا من استثمار طاقاتها وخاماتها.. وكانت وسيلته في كل ذلك حواسه ولغته وعقله، وقدرته على الملاحظة والتجربة والمتابعة وراء هدفين أساسيين هما المزيد من قدرته على الاستثمار، ومن قدرته على إتقاء المهالك والأخطار.

وعندما نحاول أن نتصور الآن بداية الإنسان الأول نجد أنه قد هبط إلى الأرض بحواس كاملة الصلاحية والحساسية للرؤية والإصغاء والملاحظة، ولتجميع الصور والأصوات في كلمات معبرة، وملخصات لغوية، يؤلف بها منظومات أفكاره، ويسجل منها لفائف ذاكرته ومعلوماته، لتكون هي وسائله – بحسب قدرته العقلية على الاستخلاص، وقدرته الشعورية على التوازن – للتمييز في جمع العلم، وفي متابعة التجارب، بين الخطأ والصواب، وبين الظن واليقين.

لقد بدأ هذا الإنسان حياته الأولى على هذه الأرض – مع اكتمال وسائله الحسية والعقلية، ومع امتلائه بكل احتمالات المستقبل – مجردًا من أية تجربة سابقة، ولذلك فقد كان عليه من الخطوة الأولى أن يندفع لجمع الأخبار، أو المعلومات والحقائق، تحت ضغط القوانين الثلاثة الدافعة له، وتحت حكم حاجته إلى أن ينمو ويأمن، فكان اتجاهه الدائم إلى محاولة الكشف عن هذه العلاقات الخفية بين الأشياء ونفسها، وبينه هو وبين الأشياء، ثم بينه وبين هذا المجهول المعلوم فوق الإنسان والأشياء.. وفوق الزمان والمكان.. هذا الذي يتم به تفسير الحياة والوجود، والماضي والمستقبل، ويقوم على أساسه شكل من أشكال الدين الحق، أو الدين الوضعي، أو الفلسفة بظنونها المختلفة.

وهكذًا يومًا بعد آخر أخذت تتجمع للإنسان بمختلف بيئاته "أخبار" صادقة – كما يراها – عما حوله، وعن نفسه، وعن عشيرته وبني جنسه..

"أخبار" يستطيع أن "يقصها" بمعنى أن يتتبعها ليعرف المزيد منها.. ويستطيع أن "يقصها" بمعنى أن يرويها لغيره، ليزداد حفظه لها في تاريخ وثروة الحياة والعلم وهو يكررها، ويفهمها، ويتابع الإضافة إليها لتزيد ثروته من المعرفة والقوة.

من هذه الأخبار الصادقة التي كانت هي "أول القصص" في حياة الإنسان بدأت معرفته تزداد، وبدأ امتحانه المتواصل لمفردات هذه المعرفة يزيد من قدرته على الحكم العلمي، وهي مرتبة فوق العلم، من حيث أن القدرة على هذا الحكم العلمي، أو على الحكم اليقيني، المرتكز على أخبار صادقة تثبت نتائجها بالتجربة، هو الذي يعين الإنسان في أي موقف من مواقف الحسم الفردي أو الجماعي على اتخاذ "القرار" السليم الذي يترتب عليه تحصيل النفع، أو تجنب الضرر..

هكذا إذن ولدت القصة الأولى في حياة الإنسان بمولده.. لقد ولدت معه من حاجته إلى "الخبر الصادق" عما في نفسه، وعما في داخل الأشياء والأحياء المحيطة به، وعما هو من حاجة الفرد وحاجة الناس إلى تبادل المعرفة بهذه الأخبار الصادقة، التي هي دليله على طرق العلم، وبعيدًا عن متاهات الجهل.

لقد كانت هذه "الأخبار" التي حملتها "القصص الأولى" في حياة الإنسان بحكم القوانين الحافظة والمحركة له هي في كتاب حياته "أبجدية" معرفته الأولى، وهي مسجلاته الصوتية والمصورة التي بدأ بجمعها في واعيته وذاكرته، وفي كلمته وإشارته، مصبوبة –حتى لا ينساها– في قوالب نغمية تعكس إيقاع حركة الطبيعة المحيطة به على حركته.. تعكس إيقاعها موجهًا إليه بلغتها التي فهمها ونقلها في صوته، ونقل صورتها إلى عقله، ليتابع ويجمع – من هذا المصدر الذي لا يكذب وهو

الطبيعة –حقائق العلم الذي يهديه إلى الدين الحق، وحقائق الدين الذي يهديه بالعلم إلى تصحيح هدفه، وإلى المسئولية عن العمل على تحقيق هذا الهدف ساعة بعد ساعة، ويومًا بعد يوم، وجيلًا بعد جيل.

المطابقة للواقع:

إذا كان الأمر كذلك، وكان الإنسان الأول في روايته لتلك "القصص الأولى" من تجاربه إنما كان يروي "الأخبار الصادقة" التي وقعت له ليضيفها إلى ثروته العلمية والنضالية، فمن أين جاء الخلاف في هذه الرواية، وكيف بدأت الخرافة تتسلل إلى "الأخبار" لتضع منها قصصًا خرافية وأساطير.. ومن بعد روايات خيالية ومسرحيات!؟

الخلاف بالتأكيد جاء من هذا التباين الطبيعي بين الناس في قدرة المطابقة للواقع في رواية الخبر، وفي نقل الانطباعات الشعورية عنه، وبخاصة عند التصدي لتفسير بعض الظواهر الطبيعية من خلال مؤثرات بيئية معينة لا تساعد على هذا التفسير بغير افتراض خرافي!

لقد كان هذا الإنسان الأول يخرج في حياته الأولى، وفي بكور الوعي والعقل، ليجمع الغذاء من الغابة، أو ليطارد الصيد عند منابع الماء، وذلك قبل عصر الرعي والزراعة، فكان يختزن كل مشاهداته من الصور والأصوات خلال رحلاته الخطرة والمثيرة، ماضيًا بتأثير ما وعاه من حوار الحركة بينه وبين الأخطار والآمال التي أحاطت به، في تقويم لغته، وتجويد مطابقته – حول الفكرة التي وعاها – بين الصور التي رآها، ودلالاتها الصوتية في الكلمة المناسبة لها، وبين الواقع الذي عاشه لحظات الخطر والأمل، والذي اجتمعت له صوره وأصواته بالكلمات والإشارات.. فإلى أي حد تكون المطابقة بين مشاهداته وحواسه، وبين حواسه ولغته، وبين لغته وروايته عن الواقع نفسه.. كما كان – وليس عن الواقع الآخر

الذي يمكن أن تغيب منه أشياء بسبب ضعف الملاحظة.. أو أن تضاف إليه أشياء بسبب قوة التخيل.. وحيث تبدأ الأسطورة وتتمدد بأوهامها في حرارة المبالغات..!

إن هذا الإنسان الصائد، أو جامع الغذاء، إذ ما عاد إلى مأواه بين زوجه وولده، أو مع إخوانه وعشيرته، بدأ في إتمام مهمته الخطيرة بعد الحصول على الطعام وذلك بأداء واجب "الرواي" أو "القصاص".. فهو في فترة إعداد الطعام أو التهامه، يتحدث.. ليقدم لهم حصيلة أخرى هامة جدًا مما وقع له، وجمعه في رحلته الخطرة، من غذاء الصور والأصوات والحركات التي تضيف إليهم علم ما لم يعلموا.. لقد جاء إليهم إلى جانب الصيد أو الثمار بصيد أثمن هو هذه "الأخبار" التي تضيف علمًا، وتعلم جديدًا، وتبعث سرورًا، أو تخلق حذرًا، وبذلك يضيف هذا "الراوي" إلى أهله وعشيرته قدرة تشد أزرهم في نضالهم – بقدر ما يكون من صدق روايته، ومن مطابقة الخبر لواقعه.. قدرة تنميهم بمزيد من النور يخترقون به الظلمة الكثيفة، ويكتشفون به مساحة أكبر من المجهول، نحو مزيد من الشبع والأمن.. والعلم الأشمل بالعالم المجهول!

لقد كان هذا الإنسان الأول – كما نتصوره اليوم – يحاول أن يملأ الفجوات الناقصة في المعنى الذي يدركه وعيه ولا ينطق به لسانه .. كان يفعل ذلك بالصرخات والإشارات وهو يخبر زوجه وأولاده وعشيرته مبشرًا.. أو منذرًا – لقد كان بأصواته وصرخاته – أو بقهقهاته – وإشاراته يجتهد أن تقع المطابقة بين ما شهده وما يحكي عنه ويحاكيه، فلم تكن في حياة البداية والبداوة، أي في حياة لم يحكمها القهر الطبقي بعد – أية ضرورة للكذب في الرواية ونقل الأخبار.

نعم.. ففي البداية، وفي مرحلة التعلم الطليقة بين الإنسان والطبيعة لم يكن "الكذب" في رواية الأخبار من حاجات الإنسان الأساسية مثل حاجته إلى الماء والخبز، أو إلى المأوى والزوجة، أو إلى الكلمة والعلم.. بل إن هذه القوانين الثلاثة الأساسية التي تحكم أبعاد حركة الإنسان لا تمنحه أفضل ما في رعايتها له إلا بالصدق.. وبالتأكيد فإن قانون الحاجة إلى اللغة والعلم والدين لا يمكن أن يتقبل الكذب، أو الخطأ في التجربة، أو الانحراف عن الصواب بانحراف الحواس عن نقل المنظور الصحيح، أو المسموع الكامل، فكل هذا يرفضه العلم بمفهومه المحدود في علوم الطبيعة، كما يرفضه بداهة بمفهومه الواسع في علم الدين والتاريخ والطبيعة، المتحدة في علم واحد يقود الإنسان إلى الصواب والحق.

لقد كان من البديهيات في حياة الإنسان الأول أن مخالفة الواقع في رواية "الخبر" تقضي على القيمة العلمية لهذا الخبر في حياة الإنسان، وتذهب بما فيه من هداية الجماعة إلى ما يصلحها.. فالكذب لم يكن يتجاوز أول الأمر قصور حواس الإنسان عن الرصد، أو قصور لغته عن التعبير، أو بعض نزوات الطمع الغريزي في الإنسان كما يحدث عندما يخفي الصائد شيئًا لنفسه عن أسرته، أو لأسرته عن عشيرته.. أو عندما تدفعه هذه الأثرة بشكل آخر إلى المبالغة في رواية ما وقع له بما لم يقع، مستهدفًا مزيدًا من الاهتمام، أو لفت الأنظار إليه بين الأسرة والعشيرة.. وأمام نفسه أيضًا!

لقد كان الصدق وثيق الارتباط في رواية الخبر بمصلحة الجماعات البدوية الأولى، التي سلمت في تكوينها الاجتماعي والحركي بعيدًا عن قهر النظم الطبقية، وعن تلوث الفكر بالثقافات الاستمتاعية أو الخداعية أو العزائية، ولا يزال مثل هذا الصدق في رواية الأخبار هو محور الأمن في

حياة القبائل العربية البدوية، كما في صحراء مصر الشرقية، وفي جميع أرض سيناء حتى حدودها المصرية عند العقبة ورفح، حيث في معايشتي لهم في سيناء الجنوبية بضع سنوات وجدتهم يسمون الأخبار باسم جامع هو "العلوم" وذلك من حيث أن العلم في كل مجالاته هو "الخبر الصحيح" والصادق عن المعلوم. فالخبر الصادق عن حركة الأشياء هو علم الطبيعة، والخبر الصادق عن قوانين حركة الإنسان في المكان والزمان هو علم التاريخ، والخبر الصادق عن الله الواحد الحق من طريق الكتب والرسل هو علم الدين، وهذا الفهم الصحيح هو من صميم اللغة، وما نزل به القرآن.

لقد شهدتهم كثيرًا كلما التقوا على ماء العيون، أو عبر أسفارهم بين الأودية والجبال راجلين، أو فوق ظهور إبلهم، أو على الطرق الممهدة للسيارات – يسأل الرجل الرجل من قومه، أو من قبيلة مجاورة لقومه عن "العلوم".. إنه يسأله بعد التحية الطيبة قائلًا "إيش العلوم يا فلان" فيقص كل منهما – وقد توقفا لحظة ذات شأن في سير الأحداث على تلك الأرض الواسعة – أصدق ما يعلمه من الأخبار لصاحبه. إن كلًا منهما يحدث الآخر بإيجاز يبلغ القصد بكل جديد مهم من شئون الحياة الجامعية في مجتمعهم فيقول "والله البلاد ممطورة والحمد لله" أو يقول "سال الوادي الفلاني عند سدر.." أو "البلاد ربيع.. والزرع خصاب الحمد لله.. يعوض بذاره"أو "جماعة فلان وفلان حضروهم كبار العرب وتكافلوا على القضاء، وقعدوا الحق.." أو "لك طولة العمر فلان مات.. وفلان أعرس على بنت فلان".. "والشيخ فلان عقب ما نزل الطور، ولاقى المأمور طلع البر." إلخ. وهكذا كما في لغة العرب الأولى الصحيحة فإن الأخبار "علوم" لأنها واقع.

إن كل هذه الأخبار الصادقة عن المطر، الزرع، والناس، والدولة.. هي من "العلوم".. ولو لم تكن صادقة لم تكن علما.. ولانعكست دلالتها. وفقدت قيمتها، كما يجري الآن في كثير من أخبار أو "علوم" الصحف غير العلمية.. أي غير الصادقة.. في بعض الأحوال!

الأسئلة الدائمة:

ولكن هذا الإنسان الأول كان أيضًا رغم بساطة عيشه أكثر مواجهة لهذه الأسئلة الكبرى في كل عصر – عما وراء الطبيعة والحياة والإنسان، وعما فوقها من سلطان، وما بعدها من مصير. إنها الأسئلة التي لا يزال يبتعد بها الإنسان عما هو في حدود رؤيته الحسية، وقدرته العقلية، والتي كثيرًا ما يبتعد بها عن الطريق الصحيح للجواب عنها جوابًا لا يشغله عما هو فيه من حمل أمانة الحياة، أو عن قياس المجهول على العلوم قياسًا شعوريًا وعقليًا يهديه إلى حقيقتها في جواب صادق شامل هو "الله".

إن هذه الأسئلة تجاوزت محاولة الإنسان الأول معرفة: هل هذا النهر أعمق من قامة الرجل حتى يمكن عبوره؟؟ أو هل هذا الحيوان المتسلل في غبشة الفجر هو وحش أو صيد..؟ .. أو هل هذه الأفعى التي تسربت إلى متاعه سامة أو غير سامة؟ ... إنها الأسئلة عن الوجود الأكثر شمولا: والأبعد أفقًا، في النظر والتفكر... وعلى الرغم من صعوبة عيش الإنسان الأول، ووفرة مشقاته، فلقد عجز عن أن يشيح بوجهه وفكره عن هذا الأفق البعيد، فأجاب بما وسعه من العلم ومن الخبر الصادق، أو غير الصادق، كما لا يزال الإنسان المعاصر يحاول أن يجيب عنها، عاجزًا كالإنسان الأول عن الإشاحة عنها بوجهه أو يفكر، وعاجزًا كذلك – رغم وفرة أجهزته وضجة ادعاءاته – عن أن يصل في جوابه عنها إلى قول

فصل، أو جواب حكيم، يوقف هذا الصراع الدموي المتزايد بين الإنسان وأخيه الإنسان، بسبب الغلو في الإجابات الخاطئة عن هذه الأسئلة نفسها..!

إن هذه الأسئلة الدائمة عن الوجود وعن الإنسان، والحياة والمستقبل تعددت منذ حياة هذا الإنسان الأول وهو يدرك الحقيقة مرة، ويخطئها عشرات المرات.. فهل بدأ هذا الوجود بنفسه..؟ .. إذن فمتى وكيف؟

أم هل بدأه خالق أكبر فمتى... ولماذا.... وكيف؟

ثم من هو هذا الخالق.. هل هو واحد أحد.. أم ثلاثة في واحد.. أم عشرات هنا وهناك في أرواح الطبيعة.. وفي آلهتها كما تخيلها الإنسان.. أو كما وضع أسماءها الكاهن.. أو العابث.. أو المختل صانع الأساطير؟.. أو الراقص المخمور في مواكب من سماه غباء وعبثًا: إنه الخمر!؟

هل هو إله واحد ليس كمثله شيء.. شرع الدين الحق، وحدد الدود، وأرسل الرسل، وكشف عن بعض الغيب، ومد بعد الموت من مراحل الحياة، وأخرج المؤمنين من الظمات إلى النور...؟

أم هل هو آلهة متعددة لم يشرعوا شرعًا.. ولم يضعوا حدودًا.. ولم يبلغوا من أمر الناس إلا أن يدفعوا بهم من النور إلى الظلمات..؟!

لقد تعددت الإجابات لتعلن عن المزيد من القصور في مطابقة "الخبر" للواقع.. ولتجد الخلافات والصراعات بين الأمم والشعوب والأفراد أسبابها التي لا تنتهي.. ولتنشأ من الصدق الأكاذيب، ومن الأخبار الأساطير.. بل لينشأ التشبيه بالصدق، وتنشأ المحاكاة للواقع بغير الواقع، في صناعة تمويهية للكلمة، والصورة، والحركة، يخرج منها كهنوت جديد هو "الدراما" ومعبد وثني جديد هو المسرح..!!

فكيف تعددت هذه الإجابات عن "واقع" ذي "طبيعة" واحدة، كان من الممكن أن تتعدد جوانب وأبعاد الصدق فيه.. لا أن تتعدد جوانب التناقض في النظر إليه بما يخرج عنه في ذاته.. وعنه في غايته!!

تعدد الإجابات:

لقد تعددت إجابات الإنسان منذ فجر الحياة عن هذه الأسئلة الكبرى – ولا تزال تتعدد – لأسباب أساسية في البيئة، هي نفس الأسباب التي تعددت بها لغاته .. إنها ظروف وعناصر وخصائص ومناخ البيئة هي التي تفرض هذا التعدد في الإجابات، وبذلك تفرض هذه الخلافات الطبيعية والمتجددة، بين الأمم في معتقداتها وأديانها.. فهل ظروف البيئة تجعل الحاجة إلى الطعام قبل الأخلاق، أم هل هي تجعل الالتزام بالأخلاق قبل الطعام..؟ أم هل هي ترفض الحياة نفسها بطعامها وأخلاقها.. ترفضها بالعمل كما ترفضها بالعقل.. وبذلك تجعل عقيدتها أن تلغي حاجة الإنسان على هذه الأرض إلى أي شيء فوق هذه الأرض!

إن من البيئات المتميزة بملامحها ومؤثراتها على فكر الإنسان وعقله وحاجاته مناطق الغابات الاستوائية في الهند، وفي أواسط أفريقية، حيث تبطئ حركة الإنسان الدافعة تحت الأمطار الغزيرة، والحرارة الشديدة، أو داخل ظلمات الغابات الكثيفة، والمخاطر الكامنة، وحيث يصبح الاسترخاء في نصف غيبوبته، والاستغناء عن العمل والحركة تحت ظاهر الوفرة والخصوبة – هي الطابع العام لحياة هذا الإنسان الاستوائي المصدوم داخل تناقض الوفرة وخطر الموت بالوحوش والأوبئة، والظلم الطبقي، والقهر الملكي.. والتماوت الكهنوتي.. وكلها طفيليات تخلقت وتعاظمت في مناخ الغيبوبة والاسترخاء!

إنه في هذه الرؤية الخاملة والمعتمة للأشياء، والرؤوس منكسة تحت المطر، وأرواح الأشياء، أو طوطمها، هائمة داخل ظلمات الغاية، وحيث لابد من طقوس كثيرة كما يؤكد الساحر لإرضائها، وجلب منافعها، وتفادي غضبها، وحيث تفعل الحرارة في الحواس فعل المخدر، فيغيب العقل، ويتفكك النشاط، ويصبح قتل ذبابة جريمة في ديانة الهندوس، وفي وصايا بوذا الخمس، مع أن الذباب هو الذي يحمل الأوبئة الساحقة – كيف يتاح للإنسان في هذه المصيدة الخانقة لإنسانيته، والمعطلة لعقله وحواسه، أن يرى الأشياء واضحة المعالم تحت سماء صافية، وأفق بعيد، وسعي متصل، ليسألها عن أخبارها فتصدق الخبر، وتعطيه الدليل؟

فإذا قال هذا الإنسان الاستوائي برفض الحياة، ودعا إلى عودة النفس من جديد لباعثها فيه وهو كما يزعم "برهمن" كان عذره أنه وجد نفسه هكذا تمامًا على طريقة فقراء الهنود "مغروسًا برأسه" في أهوال خصوبة شرسة، وحرارة خانقة، وغيبوبة دائمة. إن توازنه الوحيد هو أن يرفض الحياة، وأن يرفض أساسًا التصديق بالمنظر الخارجي الباطل، الذي تصنعه حواس الإنسان، وهو لذلك يرفض "العقل" ويتحرر من قيوده" أي من معقولاته ليدفن نفسه بنفسه بالاستبطان داخل نفسه، ليفنى في نفسه أو – كما يتصور – ليفنى بالنير فانا في الروح الأعلى.. في البريم آتمان!!

مثل هذا الإنسان في صياغته النهائية لإجاباته عن الأسئلة الإنسانية الكبرى في هذا الشكل الشائع في تلك البيئة من ديانات "الرفض" يقدم إجابة غير صحيحة بالنسبة لفطرة الإنسان السوية ونوعه، ولكنه يقدم إجابة صحيحة تمامًا – رغم أخطائها –بالنسبة لبيئته وواقعه ورؤيته هو!!

وكذلك فهناك من البيئات المتميزة بخصائصها ومؤثراتها القوية على فكر الإنسان وعقله وحاجاته – هذه المناطق الجليدية الباردة في قارة

أوروبا بأسرها وشمال أمريكا حيث تنزل الحرارة في الشتاء كثيرًا تحت الصفر، وحيث تجري فيه أنهار قليلة الجدوى في الزراعة وهي تشق مناطقها الجبلية الوعرة في أكثر بقاعها. وهكذا لا يكاد يمضي الصيف الواهن الخاطف حتى يقبل الشتاء بجليده، ومشكلاته، وحيث يتحصن الناس وراء الجدران والنوافذ المغلقة، وإلى جوار "المدافئ" دائمة الاشتعال، والتي استعاضوا عنها اليوم في المدن بالتدفئة المركزية.. ففي هذه البيئة القابضة بظلامها وبرودتها، والدافعة إلى الحركة النشطة لحماية الجسم من التجمد، وللدفاع العاجل عن النفس بتوفير الطعام والوقود، والتي لم يغير العلم الحديث كثيرًا من طابعها، أو يخفف من مؤثراتها، عاش هذا الإنسان الأوروبي – سليل الهنود الرافضين للحياة – على خط معاكس نسبيًا مع مناهج ومعتقدات أسلافه. إنه لا يرفض الحياة ولكنه يتشبث بها. وهو لا يحمل أية وصية مقدسة بالامتناع عن قتل أي كائن حي ولو كان بعوضة أو صرصورًا، لأن وصيته المقدسة من أيام الإسكندر وأوغسطوس كانت هي حتمية قتل أخيه الإنسان، وبخاصة هذا الذي يملك مزارع القمح والعنب فوق أرضه الخصبة والواقعة جنوبي وشرقي البحر الأبيض المتوسط.. الإنسان العربي!!

وهذا الإنسان الأوروبي، الذي لا يرى من السماء الصاحية قدرًا يكشف له عن علاقات الأشياء في مواقعها الطبيعية، بل هو قلما عرف يومًا ما: ما هي السماء الصافية – هذا الإنسان تعلق مثل أسلافه بالخرافات الملائمة له. لقد صنع له آلهة تساعده في التشبث بالحياة من أجل أن يمتلك الأهداف الصعبة فوق أرضه الوعرة المثلجة.. من أجل أن يأكل ويشبع، ويسكن ويستدفئ، ويسكر ويفجر.. وكان أن صنع من "زيوس" أي "النهار" الذي يتيح له وقته أن يجلب الطعام لنفسه وأسرته، وأن يزيح

الجليد عن بابه وطريقه – كبيرًا لألهته التي اختارها بحسب هواه فيها، ومصلحته منها، ممثلة لعناصر الطبيعة القوية التي تطبق بسلطاتها عليه، ويريد هو أن يصل يومًا ما – كما يحلم – أن يطبق هو بلسانه عليها، وأن يغير من مسارها، بل ومن قوانينها.. أليس هو الذي اخترع أسماء هذه الآلهة، واختلق لها من الأساطير ما يجعلها مثله: تسرق وتأكل.. وتحب وتخدع.. وتسكر وتفجر!!

إنه من وراء الجدران المغلقة عاش طويلا، وبجوار "المدفأة" جلس كما فرضت بيئته عليه ليفكر من وراء النوافذ في الحياة المحجوبة عنه خارج النوافذ ... لقد جلس طويلًا يفكر في الحياة المتحركة من حوله من نقطة ساكنة خارج الحياة بجوار مدفأته.. وكان فكره تحت حكم هذه البيئة وهو يمضي في البحث عن حقائق الأشياء، وعلاقات الأشياء، وما وراء الأشياء – من داخل نقطته الساكنة – فكرًا رمزيًا واستنباطيًا، تمامًا كفكر أسلافه الهنود، وإن تنافر هدفه في التشبث العدواني بالحياة مع هدفهم في الرفض السلبي والسلمي للحياة..!

لقد خرج وهو يذيب جليد أفكاره بجوار المدفأة قرونًا طويلة بفلسفة واحدة رغم انقسامها منذ اليونان إلى مذهبين متناقضين في الظاهر هما: المثالية والمادية.. كما أن كلًا من هذين المذهبين بقى إلى اليوم من خلال تعدد الفلسفات المتفرعة عليه من متغيرات العصور يقدم اتجاهاته الواحدة والمتسقة في تعبيره عن ديانة أوروبية الحادية تعلم أبناءها في تشبثها العدواني بالحياة أن "الطعام قبل الأخلاق"، وأن "العقل الإنساني أسرع في تدبير هذا الطعام من الله، أو من الآلهة" وأن: اتقاء البرد وتوفير الطعام يضاعفان من الحاجة للعمل ولذلك فإن توفير "العمل الجماعي" بالسخرة المقنعة تحت شعارات أفلاطونية، أو السخرة بالتجويع لابتزاز جهد العاملين بأرخص

الأجور، هو السياسة التي يجب أن تتابع، ليبقى قيصر، أو شبحه، أو فكرته، في شكل السلطة التي يبررها هذا الإنسان الجليدي بعقيدة ما، بعيدة عن الإيمان بالله، حتى وإن حملت بتأثير المسيحية القادمة من بلاد العرب اسم الله..!

مثل هذا الإنسان الأوروبي، وفي هذه البيئة المسيطرة على فكره وسلوكه – عندما نقل الحروف الأبجدية عن العرب الذين تعلم الكتابة منهم ليصبح إنسانًا – بدأ فنزع سمة المساواة بين هذه الحروف فجعل منها حروفًا كبيرة وأخرى صغيرة، تعبيرًا عن تصوره الثابت – رغم خداعه بكلمة الديمقراطية – للطابع الروماني القهري في دمه وعقله.. وهو عندما تعلم المنهج العلمي من العرب أيضًا، وخرج بذلك من عمائه الفلسفي التجريدي الأرسطي ثابر حتى أخضع ثمار هذا العلم لعدوانه، ولشراهته إلى ترويع السلم، والتجارة بالحرب، والتباهي بقدرته على تدمير العمران، وقتل الحياة، فكان هذا العصر الذري، وكان هذا التسابق الخفي بين الشرق والغرب على الحروب بالأوبئة، أو بتغييرات مدمرة للطقس!

وهذا بنفسه هو الإنسان الذي نشأ في ظلال ثلوج الأوليمب يمضغ أساطير هوميروس، ويهتف بحياة آلهة الحب والخر، و"يصطنع" بهذا الاستبطان الرمزي التمويهي الخرافي مشاهد مواكبه وتمثيلياته.. ويبني "مسرحه" المزخرف بالأكاذيب، وأحلام الرفاهية، وعطايا آلهة الخمر والحظ والجنس، وهو يطمع به أن يحقق الأمل الأوروبي في حياة لا تتجمد، وسلطان على الشعوب المالكة للموارد لا يقهر، منذ عصر اسخيلوس وسوفوكليس.. حتى عصر ابسن وبرخت!

إن هذا الإنسان الذي لم يفهم في ترجمته عن واقعه، وسيظل من الصعب عليه أن يفهم داخل هذا الواقع – أن هناك "الله" يحكم السماوات

والأرض، ويقرر بالسنن والقوانين العلمية مشيئة علمه وحكمته في كل شيء.. لا يزال حبيس عادات إنسان الظلام، الذي ألقت به عدوانيته في التشبث بالحياة إلى هذه المراحل المتتابعة لحضاراته وفلسفاته بنفس مزاجها الأحادي، والأسطوري، والتسلطي، الذي لم يتغير مذاقه منذ العصر العبودي لليونان والرومان، وحتى هذا العصر الذي تمارس فيه نظم وفلسفات مختلفة نفس تلك النزعات تحت أسماء "مسرحية" تمويهية مثل الصهيونية، أو العالم الحر، أو الشيوعية!

إن إجابة هذا الإنسان الأوروبي كانت ولا تزال بالنسبة لهذه الأسئلة الإنسانية الكبرى هي إجابة غير صحيحة بالقياس إلى فطرة الإنسان ونوعه، وإن كانت صحيحة تمامًا – رغم انحرافها عن الصحيح – بالنسبة إلى بيئته وواقعه ورؤيته..!

مهد الرسالات:

وأخيرًا – وإن كان موقعه أولًا – نجد هذه البيئة المتميزة بخصائصها ومؤثراتها، والمحددة على سطح الكرة الأرضية مناخيًا وجغرافيًا وتاريخيًا بحدود الوطن العربي، الذي كان مهدًا للرسالات الداعية إلى الله، ومشرقًا لشرائع الدين الحق، ودارًا عتيقة لهذه اللغة العربية التي هي أول لغة عرفها الإنسان، وأبقى اللغات بمرونتها وكمالها إلى اليوم.. اللغة التي نزلت بها الكتب على الرسل، إذ نزلت التوراة بالعبرية، وسجل الإنجيل الآرامية، وهما لهجتان من لهجات اللغة العربية خارج الجزيرة، ثم نزل القرن بالفصحى ليمتد به إلى ما شاء الله كمالها وبقاؤها.

في هذه البيئة التي هي صحراء واسعة في قلب العالم القديم والحديث تتخللها أنهار، ولا نقول إنها بيئة أنهار تحيط بها الصحراء، ما بين الخليط

والمحيط – ويبدأ الإنسان العربي أول مراحل تكوينه الإنساني متبديًا ومتعربًا في بداء الجزيرة الساطع، من خلال حركته الدائبة، وسط حركة الأشياء التي يراها في مواقعها ومواكبها شديدة الوضوح بالنسبة إليه. فكأنها بين النهار والليل – وحيث لا سقف يحجبه عنها، ولا استقرار يعطي به ظهره لها – هي أسره التي يلقاها، ويأنس إليها، ويتعامل معها، داخل هذه المشاهد الكونية الدائرة بكمال اتساقها أمام عينيه، تخاطبه بأنغام الرياح، وإيقاع الأضواء، وإيماءات الظلال، بينما يدور من فوقه ومن حوله هذا الملكوت السماوي والأرضي، فيفهم ويتعلم، ويؤمن ويتعرب، ثم يفيض لسانه بما في قلبه وعقله، فإذا هو في لغته العربية المبينة لسان هذه الطبيعة وعقلها ونظرتها.. وإيمانها أيضًا!

إنه في هذا البداء المضيء الذي يفيض فيه الخفاء، ويبطل الشك، ويتحرك الساكن، وينطق الأبكم، يسير هذا الإنسان الحر، المتفكر، في غير فضول ولا ترف.. إنه يسير إلى غاية كما تسير الأضواء والرياح والسحب، والشمس والقمر، والنجوم والأفلاك.. إنه يسير لينظر.. يسير مرفوع الرأس إلى السماء يسأل عن الغيث، ومبسوط النظر على الأرض يبحث عن المرعى... إنه يسير لينظر ويسمع.. ويعي ويسجل.. فلا تخطئه نأمة، ولا تفوته سانحة.. مستهديًا إلى الله وهو يرى دلالة الأشياء عليه.. في أصواتها وصورها.. كما يرى هذه الدلالة عليه أعظم في اتساقها وديمومتها.

إن هذا البرهان على الله، المتلألئ في شعاع، والشامخ في ليل، والمبسوط على أفق، والساري في نسمة، والهاتف في صباح، والمسبح في ضحى، والمعترض بقصص الهداية عند مفترقات الطرق – إن هذا البرهان الذي صعد عمودًا من النور أمام عيني إبراهيم في برية العراق، وبلغ في موجات التسبيح باسم الله قلب محمد وسمعه في غار حراء.. إن هذا البرهان

الذي لا يزال جليًا أمام من يسير وينظر، ومن يسير ويسمع، على أرض الوطن العربي وبدائه، هو الذي يمنح قضية الإيمان إلى اليوم هذه الهيمنة العلمية والزمانية، على غيرها من القضايا والتشبيهات فوق هذه الأرض، ويمنح المؤمنين الصادقين هذه الصحوة التي يميزون بها طريقهم في هذا العصر، رغم خطط أعدائهم، وفوق أماني المتربصين بهم، وهم يستعدون اليقين، ويسترجعون الحق، ويلتزمون بالصدق.. صدق الرؤية... وصدق الكلمة... وصدق العمل... وصدق الغاية.

إن إجابة هذا الإنسان العربي تصبح بهذا الصدق في التعبير.. في رؤيته للواقع، وإخباره عنه، وقصصه له، هي الإجابة الصحيحة بالقياس إلى فطرة الإنسان ونوعه، كما أنها كما كانت وكما سوف تكون.. هي الإجابة الصحيحة تمامًا بالنسبة إلى بيئته الفطرية، وواقعه المضيء، ورؤيته الشاملة..

الصدق والكذب:

من هذه المواقف البيئية المتسقة – رغم اختلافها في النظر إلى الواقع، وفي التعبير عن فطرة الإنسان ونوعه – تمضي المجاميع البشرية منذ حياة الإنسان الأول، متدافعة أو منغالية، وهي تعبر باختلاف بيئاتها عن تفسيرها المختلف للوجود والحياة والإنسان، وهي في مواقفها المتصادمة تحاول أن نقدم البرهان على صدقها الكامل بالنسبة لنفسها، وبالنسبة للنوع البشري، وبالنسبة لحقائق الحياة، دافعة بالبشرية حصيلة هذه الأحداث إلى غايتها المقدرة.

ولقد عاشت هذه "الأنواع" النظرية، والمواقف التفسيرية المختلفة للحياة تصنع قصصها وأخبارها، وتصوغ حياتها وتقاليدها، بين الصدق والكذب، حتى ظهر الإسلام بمنهجه العلمي، وبرهانه العملي، وصدقه التطبيقي التقدمي: وهنا – في ضوء باهر جديد لحضارة ووعي الإنسان – تحددت معايير أصدق وأقرب إلى العلم والتجربة واللمس، للحكم على طبيعة هذه الخلافات النظرية بين البشر، والتي لا تزال تنشأ بسبب اختلاف مواقعهم البيئية وتراثهم المستقر في جذورهم تطورهم في الزمان والمكان.. وبذلك تجاوز الإنسان – في كل قاراته – مرحلة الاعتماد الوحيد في الكفاح الفكري والديني والمذهبي على طوطميات السحرة، أو طلسمات الكهنة، أو تجريدات وأوهام الفلاسفة، حتى وإن كانوا بدرجة ديكارت أو هيجل أو كارل ماركس!!

لقد تحدد بظهور المجتمع العربي الإسلامي، والمنهج العلمي القرآني – منذ القرن السابع الميلادي – أن الصراع بين البشر ليس في حقيقته – كما يذاع بقوة في عصرنا – بين من يملكون الذكاء ومن لا يملكونه كما ترى الرأسمالية.. أو بين من يملكون العمل ومن لا يملكونه كما ترى الماركسية.. وإنما هو في حقيقته الطبيعية والحاكمة "تدافع" و"حوار" بكل الوسائل والأسلحة واللغات بين "عقائد البشر" أي بين هذه "النظريات" و"المذاهب" و"الأيديولوجيات" التي ترتفع أصواتها، ويتطاحن جدلها بكل الوسائل والقوى والدعايات لتعبر عن هذا "التدافع" الطبيعي الحي والمستمر بين البشر، في معركة ادعاء النظرة الصحيحة لواقع النوع الإنساني وحاجته. وهو تدافع يمضي إلى غايته بقدر ما في مواقف هذه "النظريات"

من الصدق والوهم... ومن العلم والجهل.. ومن الإيمان والإلحاد.. ومن الرؤية الشاملة والمنفتحة بالإنسان على ما وراء الزمان والمكان.. أو الرؤية القاصرة والمنغلقة به في حدود هذا الزمان والمكان.. حيث تحاصر الحياة الإنسان بالموت، وتنتهي به في نظر كثير من أهل الأرض.. إلى العدم.. فلا "يعث" في عالم أزكى ينتهي فيه الصراع أو التدافع، ويخلد فيه إنسان أكثر علمًا، وأطيب مقامًا.

إن هذا التدافع باختلاف الرؤية الإنسانية للوجود والحياة والإنسان.. التدافع بالمذاهب والنظريات والأديان هو الذي يفسر لنا لماذا لا يزال الأقوياء والجبابرة من الرأسماليين والماركسيين في عالمنا الحديث وهم يدورون ويداورون في شقاء بالغ حول أنصاب علومهم الخطرة، وداخل مصانعهم المقعدة، ومدنهم الذرية، ونظمهم الحزبية – لا يبصرون أبعد من أنوفهم، مع أنهم صعدوا إلى القمر، وكدروا جو المريخ، كذلك فهم لا يبلغون من تصورهم لتقدم نوع الإنسان أبعد من تنبئهم بهذه "الجنة" التي يحلمون بإقامتها لأجيالهم القادمة على هذه الأرض.. جنة أزرار الملك سليمان.. جنة "شبيك لبيك" و"نعم حاضر"... فكل شيء موجود تحت ضغطة الزر السحري.. الطعام والشراب، والخمر والمتعة، والسيارة والفراغ.. جنة يحرص على إدعائها الشيوعيون.. حيث تعم البطالة، ويموت الصراع، ويموت معه الجدل الماركسي بالطبع، وتسقط التناقضات في هاوية سحيقة، لكي تقوم في الخيال هذه "الجنة الأرضية" التي يدعيها الرأسماليون من الجانب الآخر؛ وبهذا يتقرر أن المثوبة على هذه الأرض هي فقط لجبابرة الرجل الأبيض الذي سرق بكل وسائله الملتوية أكثر خيرات أفريقية السوداء،

وأسيا الصفراء، وأرض العرب.. والذي يهدد أيضًا من الجنس البشري.. ثم يطمع في المزيد من العدوان.. والسرقة!!

وهكذا كان ولا يزال مصير العالم متعلقًا بهذا التدافع الحتمي بين الصدق القوي رغم حصاره، والكذب الواهن رغم ججيجه.. وهو تعلق يدركه الأقوياء من واقع شقائهم رغم قوتهم: ويدركه الضعفاء أو المستضعفون بقوة أملهم، واستبشارهم بالمستقبل رغم ضعفهم.. وهم يعلمون من سنن التاريخ وأحكامه أن جميع الجبابرة يسقطون، وتسقط حضاراتهم معهم، عندما تبلغ أكاذيبهم نهاية الطريق المسدود، وأن جميع المستضعفين ينهضون، وتنهض حضارات جديدة معهم، عندما يهتدون بالصدق إلى أول الطريق الصحيح.. الطريق إلى الله.

obeikandl.com

الفصل الثاني

أعجب الآراء بين العرب المعاصرين عن القصة عند العرب

obeikandl.com

obeikandl.com

لا خلاف إذن على أن "القصة" كانت هي "الصور الخيرية" التي ولدت مع الإنسان، لتحدد له بأول استعمالاته للكلمة والإشارة مدى رؤيته للواقع، وتفسيره له، وموقفه منه. وأن هذا النسيج القصصي لا يزال يخرج من فم الإنسان، في حديث كل يوم، وفي الأدب الذي هو حديث جيل إلى جيل أو أجيال، ليصنع شبكة من الذبذبات الصوتية، أو سطورًا بغير حصر تنطق بها الكتب، هي التي تحدد عقيدة المجتمع، وتعبر عن موقفه لحظة بعد أخرى، من هذا الواقع المحيط به، وعن ردود أفعاله فيه.

ولكن الذين تصدوا من المفكرين والأدباء العرب – تحت تأثير مخدر الثقافة الأوروبية القصصية – للحكم على القصة عند العرب بقياسها إلى القصة والمسرح عند الأوروبيين – **فإنهم أكثر الصواب في هذا الحكم للأسباب الآتية:**

- بعد المسافة الفكرية والزمنية بينهم وبين أسلافهم العرب، مع أنهم ورثتهم الذين يعيشون على أرضهم، ويتكلمون لغتهم، ويعتقدون عقائدهم، ويسترشدون بأصدق ما تركوه لهم وهو القرآن الكريم، وما صح تناقله من علم النبي وحديثه، والشعر القديم، وما صحت روايته من قصص العرب قبل الإسلام وبعده، ومن أخبار أيامهم، وإنجازاتهم العلمية التي تغير بها تاريخ البشرية.

- الاعتقاد في مناخ نشأتهم بمناهج تعليمية وضع الاستعمار قواعدها الأولى، ولما تزل مهيمنة على مناخ التعليم والثقافة والفكر في الوطن العربي – بأن القصة الخيالية المقروءة والقصة المسرحية المنظورة من الفنون التقدمية التي ينتفع العرب من الأخذ بها – وإن تأخروا طويلًا عن ذلك – في مجال سعيهم الحثيث لتجاوز التخلف عن العصر، وملاحقة المتقدمين فيه.

في دراستهم القاصرة للقصص العربي الأول، حيث نظروا إليه من وراء ألف حجاب، كانوا قد حكموا في موضوع القصة الخيالية والمسرحية حكمًا مسبقًا لصالحها، وانقادوا بذلك إلى وجهات نظر مروضيهم وحاضنيهم من الأوربيين المستعربين، الذين جمعوا – في نظرتهم إلى نفور الأدب العربي الأول من القصة الخيالية أو المسرحية – بين الجهل بأكثر خصائص الأمة العربية وطبائعها ومعاني لغتها، وبين الهوى الذي يخدمون به خطط الصهيونية والاستعمارية وغيرهما لطمس مصادر الثقافة العربية الأصيلة، والتهوين من مقوماتها، وإنكار خصائصها الإنسانية، وطابعها المتجدد العصرية والتقدمية، وذلك حتى يقع المعاصرون من أبناء هذه الأمة مع أزمة الانفصال عن جذورهم في هذا "الاغتراب" الذي يدفعهم إلى تقبل "حضانة" الحالة: السيدة أوروبا، وتقبل ثقافتها وفنونها.. بل ولغتها!

ولهذا فقد كانت آراء أدبائنا التي صرخوا بها كالأطفال وهم يرددون مقاطع الدرس المحفوظ وراء معلميهم هي صور "مرعوشة" وكئيبة من كلمات أساتذتهم المستعربين أو المستشرقين!!

ولهذا أيضًا – وهو أمر بالغ حد الأسى والأسف – عجزوا عن أن يكتشفوا – وما كان أيسر ذلك على أكثرهم – هذا القانون الصحيح في علم الإنسان، والذي يحكم بضرورة اختلاف البيئات التي يعيش فيها البشر مناخيًا وجغرافيًا – أشكال وأنواع وفصائل "القصة" بين شعوب العالم، كما حكم هذا القانون اختلاف لغاتهم، بل واختلاف الصور والمعاني – المعبرة عن حقائق واحدة في الواقع الكوني – داخل هذه اللغات المتباينة في الجذور والمفردات والتراكيب.. والدلالة الإنسانية!

لقد عجزوا – وهم حفدة الأسلاف الأكرمين والأصدقين من العرب – أن يدركوا أن القصة مثل اللغة والدين تختلف باختلاف رؤية الواقع،

واختلاف الحكاية عنه، بقدر ما يكون هذا الاختلاف الواسع إلى حد التناقض بين "الخبر الصادق" الذي يرتقي إلى مستوى الوحي الإلهي في الدين الحق، وعلم التاريخ في منهج هذا الدين، وبين "الأسطورة" التي تظهر بها بالقهر والهوى والاسترخاء والعجز أوهام الشعوب الشرقية في تصور الماضي، مغلقًا بأمنيات وأحلام الحاضر؛ كما يتمناها العاجزون والمقهورون والمحرومون.. ثم هذه القصص في أبنيتها وأثوابها الخيالية التي تعالج في الغرب أمراض الشراهة إلى المتعة، وتواجه ضغط الحاجة البيئية الملحة إلى تغيير الواقع – الشديد البرودة والقليل الموارد – حيث تضعهم القصة الخيالية الروائية، أو القصة الدرامية المسرحية داخل جلسات خاصة أن عامة يتعرضون فيها من طريق الاستهواء الفكري والحسي إلى تكرار حالات "التوتر والانفراج" وراء قدر من المتعة الوقتية، وقدر آخر من الاطمئنان إلى مزيد من هذه المتعة في الطعام والدفء والخمر والحب والتملك في المستقبل القريب، كما هو مفهوم المتعة المطلق عند الأوروبيين منذ اليونان الأوائل، وحتى اليوم..!

الأسئلة المطروحة:

مع هذا الوضوح للحدود التي تفصل بقوانين علم الإنسان بين الصدق في رواية الواقع، ومواجهة الواقع، وبين ما يمكن أن نسميه درجات الكذب، أو خداع الحواس التي ينشأ عنها الانخداع أو الخداع العقلي في رواية هذا الواقع – غاب عن المعاصرين من أسلاف العرب في سكرات الشوق لمثل تلك "المتعة" بمفهومها الأوروبي القديم والحديث، أي مفهومها الذي يقدم الطعام على الأخلاق، والخمر على الماء، والعاجل على الآجل – غاب عنهم هذا القانون الواضح لهم في شمس بلادهم، واتساع آفاقها، وإيقاع صوت القرآن فيها، ومضوا وراء أعينهم المعصوبة بعصائب فكر

المستعربين، وحواسهم المخمورة ببقايا وساوس الاستعماريين – يصيحون صياح المجاذيب ليقرضوا على الأدب العربي المعاصر تخليه عن ذاته في الصدق، وعن مقوماته في الوضوح، وعن هيمنته على غيره من آداب أهل الأرض وهو يزكي بأسلوبه الجلي المباشر، وإيقاعه الإنشادي المبشر – حقائق الإيمان، وشرائع الله، وطريق الخلود.

وهم لا يريدون ذلك بالأدب العربي فقط، وإنما يريدونه أيضًا لكي يحشروا الإنسان العربي بالإكراه أو بالخداع، ويعد سلخه عن ثوبه الأدبي القومي الفضفاض – في تلك البدلة الأدبية الأوروبية الضيقة، التي يبحث فيها تحت قبعته، أو يغرق بها تحت قبعته، في خيالات تلك القصص المصنوعة حول أبطال ليس لهم وجود في الواقع، بعد أن كان هو بأدبه الحي يحكي حكاية الواقع الذي هو بطله.. هذا الواقع الذي تغير به وراء هؤلاء الأبطال تاريخ العالم كله، ومسيرته، إلى ما هو أفضل، عصورًا بأكملها لا يستطيع العالم نسيانها.

والأسئلة المطروحة أمام هؤلاء الأدباء والمفكرين كانت بطبيعة هذه القضية أسئلة كثيرة ومتنوعة، **ولكنها في جملتها كانت تصدر عن سؤالين أساسيين هما:**

السؤال الأول: هل عرف العرب فن القصة الخيالية وقصة المسرح؟.. إن كانوا قد عرفوا ذلك على أصوله الفنية كما عالجها الأوروبيون أو قريبًا من ذلك فما هو الدليل؟ .. وفي أي عصر؟ .. وأين كانت مسارحهم؟.. وهل كان ذلك قبل الإسلام.. أم بعد الإسلام؟ .. وهل كان نقلًا عن اليونان بالتلامس الحضاري.. الذي كان بين اليونان والعرب قسريًا عصورًا طويلة.. أم كان هذا الفن القصصي بطقوسه الأوروبية الوثنية مزدهرًا على جذوره الأصيلة في آداب العرب وفنونهم ومعتقداتهم ولغتهم؟

السؤال الآخر: إذا كان العرب لم يعرفوا هذا الفن القصصي، ولم يقربوه بطقوسه الأوروبية – فلماذا..؟.. مع أنهم اتصلوا طويلًا بالحضارة اليونانية الرومانية قبل الإسلام، وبعد الإسلام، وكان اتصالهم بها في مصر والشام وفلسطين والبتراء – اتصال المغلوب بالغالب، والمغصوب بالغاصب.. لماذا إذن لم ينقلوا هذا الفن.. وفي المسرح بالذات؟.. لماذا لم يحاكوه محاماة التابع لثقافة المتبوع؟.. وهل كان هذا الرفض من هؤلاء العرب المتحضرين لأنهم كانوا قاصرين عنه في قدرة الخيال والابتكار؟.. أم لأنه كان لهم فيما صلح لهم من آدابهم غناء من جهة الكمال لا من جهة النقص.. ومن جهة السمو فوق آداب اليونان – التجار الغاصبين المعربدين.. وليس من جهة القصور؟!

لم يضع الأدباء والمفكرين العرب أسئلتهم عن القصة عند العرب في مثل هذه الحدود التي ترسم منهجًا سليمًا لمحاولة الجواب العلمي والتاريخي، بل ساروا في انقيادهم الأعمى لأساتذتهم وأهوائهم في طريقين آخرين عادوا بعدهما بعجائب الآراء المغرضة والخاطئة.. **وهما:**

الطريق الأول: وعليه أكثر المستعربين والمستشرقين وهو الحكم بأن العرب كانوا قاصرين عن الفن القصصي والمسرحي لأسباب تلمسوها مثل أساتذتهم بكل من الجهل والهوى، وهي تفسر في زعمهم قصور العرب "المساكين" عن امتلاك القياد لهذا الفن الأوروبي "الرفيع"..!

والطريق الآخر: وعليه أكثر المتهافتين بأشواقهم من الأدباء العرب وراء الهدف الحضاري العظيم – في زعمهم أيضًا – وهو مسرحة الأدب العربي القابل في تصورهم لهذه المنحة الحضارية الكبرى. وهؤلاء وإن لم ينكروا مثل سابقيهم قصور العرب عن إرساء قواعد هذا الفن الخيالي والمسرحي في آدابهم إلا أنهم على أسنانهم، ويبرقون بعيونهم، وهم يذرعون

أرجاء التاريخ الأدبي وعصوره في حياة الأمة العربية المديدة لكي يلتمسوا أو يقتنصوا الشواهد الباهتة والزائفة من هنا وهناك ليؤكدوا وجود هذه "القابليات" والظواهر على عبقرية قصصية "كامنة" في آداب وفكر "وتلهفات" هذه الأمة لكي تتقدم وراء أوروبا، وفي قوالب ومفاهيم آدابها الخيالية والمسرحية.. وأنه من الواجب القومي عندهم بذل كل الجهود للنفخ في هذه الشرارات الصغيرة لتصبح نارًا عظمية لفن عربي خيالي ومسرحي فعال.. في هذا العصر!

الجميع إذن بين هؤلاء المتأدبين قد أجمعوا على ظاهرة "القصور الخيالي" الذي لازم آداب هذه الأمة العربية في مجال القصص والمسرح، مع أنها هي الأمة التي كانت – مع قيامها بنفسها حرة دائمة في معاقلها بالجزيرة العربية.. هي المرشد الأول، والمنارة لأولئك اليونان الأوائل، ثم لهؤلاء الأوروبيين الأواخر، في كل ما هو أساسي لعمارة الحياة، وعمران البشر، من العلم ومنهج العلم.. ومن ثم فقد أجمع هؤلاء على أن ينشط أبناء هذه الأمة العربية التي عاشت تحمل أمانة المرشد بالصدق والعلم والدين.. لكي يشيدوا لهم في هذا العصر الذي بدأت تخفت فيه أصوات المسارح أمام إشعاع التقدم العلمي – مسرحًا عربيًا تتحرك فوقه قصص الإنسان.. بالمفهوم الأوروبي.. أي بمفهوم حضارة الإنسان الأوروبي، وعندما دخل بحضارته العدوانية دور الاحتضار!

وهكذا لم يفكر واحدا من هؤلاء المتفضلين بصراخ الدعاية للمسرح الذي توارى في بلاده في الظل، وللقصة الخيالية التي مزقتها مدارس العبث واللامعقول – لم يفكر واحد منهم في أن يطرح السؤال الصحيح في منهج البحث العلمي وهو "ما نوع هذا القصص الذي عرفه العرب الأوائل تعبيرًا بآدابهم عن حياتهم، وواقعهم، وخصائصهم؟.. وما هي

القيمة الأدبية والإنسانية والاجتماعية في هذا النوع من القصص بالنسبة إلى قيمة الفن الأوروبي القصصي، القديم والمعاصر، إذا وزناهما معًا بموازين علوم الاجتماع أي بموازين علم الإنسان السوي، وليس بمقاييس نزوات الإصلاح المتخبطة، أو فنون المتعة الهابطة!!

لا يعرفون آباءهم:

ربما كان تاريخ الخديو إسماعيل حفيد محمد علي وسليل الأتراك الأوروبيين، والصنيعة اللينة في أيدي الاستعماريين واليهود – هو أول مشهد حقيقي يمكن التفرس فيه لدراسة البدايات المشبوهة لهذه اللفتة الخطرة باتجاه فنون أوروبا القصصية.. ففي لحظة هزيمة وإفلاس وبيع لكل التراث العربي باع الخديو التعس مصر لدائنيه – أو هكذا ظن – وهو يعدهم إذا رفعوا قبضهم عن عنقه بأن يجعل مصر الجائعة المقهورة بفلاحيها الأميين، وشعبها المضطهد تحت حثالة المماليك والأرمن، ودهاة اليهود والفرنسيين والإنجليز – قطعة من أوروبا.. ومن أجل هذا أنشأ الأوبرا بجوار المقهى البلدي.. وأنشأ حديقة الحيوان لتأكل السباع والقردة.. ويجوع من حولها البشر!!

ومن هذه البداية.. بداية الرجل الذي وجدوا في قصوره عند نهاية حياته 400 جارية بيضاء غير الجواري اللائي وهبن لخاصته من الأغنياء والعمد – نفهم من أي بؤرة نبعت ولا تزال تسيل تلك الأشواق التي يتواجد بها المجذوبون بالمسرح من الأدباء والمتأدبين..!

.. ونبدأ بأحد الأستاذة الأعلام في دراسة الأدب وهو محمد هاشم عطية أستاذ الأدب العربي السابق بدار العلوم.. منارة هذا الأدب قبل انطفائها.. يستعرض هذا العالم لقرائه وطلبته في كتاب "الأدب العربي

وتاريخه" بعض آراء المستشرقين عن الإنسان العربي فيذكر رأي بعضهم في تمسك العربي بالتوحيد في الدين، ويذكر تعليلهم ذلك بوحدة الحياة على أفقه – يقصدون ثباتها – وأن هذه الحياة الفقيرة في تعدد المناظر – وليس هذا صحيحًا – قد جعلته في باديته الجرداء، وصحرائه المحرقة "ثابت الفكر" – أي غير قابل للتحول من فلسفة إلى أخرى – وحرمته من هذا "القلق العقلي" و"الحيرة الفكرية" التي تجعل صاحبها "نزاعًا إلى الاستقصاء والتعمق في البحث وإلى الدخول في أعماق الأشياء، والتغلغل في أسرار الكون"!!

يقول أستاذ الأدب العربي هذا الكلام ومثله ولا يستطيع أن يقول لقرائه في الرد على هؤلاء المستشرقين أن العرب قد حققوا "السلام النفسي" عندما بلغوا أعظم العلم بأسرار هذا الكون وهو الإيمان بالله الحق، الذي منحهم هذا السلام للفرد في نفسه، وللمجتمع في أفراده وعلاقاته، وأن العرب لو خيروا مرة أخرى بين ذروة السلام النفسي، واليقين الديني، والاستقرار العقلي على الصواب الواحد، وبين سفوح "القلق العقلي" و"التيه الفكري" التي يقطنها ويتشبث بها الأوروبيون سواء في عصر اليونان الفلسفي التجريدي التسلطي، أو في العصر الحديث العلمي الانفصامي الخداعي.. ما اختار العرب في ذلك العصر، وفي كل العصر، إلا هذا السلام النفسي مع الله، والسلام الاجتماعي في غاية هذه الحياة.. ولرفضوا – مهما كان الثمن – هذا الخيال الكاذب الذي تتعدد ألوانه أو أكاذيبه كما تتعدد سكرات الخمر، وتتتابع أمانيه وظنونه ومتاهاته كما تتتابع أضغاث الأحلام!

أوليس من المؤسف، والغريب، أن يصاب مثل هذا العالم بالحيرة في هذه القضية الواضحة لعينيه تحت شمس بلاده.. القضية التي هو طرف

فيها، وطرف مبصر.. فلا يستطيع أن يكشف عن سلامة المنهج العربي في أدب النظرة والنظرية الواحدة – إنسانيًا واجتماعيًا وعلميًا، ولا يملك أن يمد الطرف ليكشف عما في حياة أهل السراب مع أساطير الشرق، وأهل الضباب مع مسرحيات وخداعيات الغرب من نقائص في التكوين، وحيرة أسلمتهم إلى الظنون، وقصور عن التوازن في حياتهم المكروبة بين واقعهم وفطرتهم، فكانت هذه المآسي التي امتلأت بها عصورهم، وكان هذا الارتماء المهين بين أذرع الأساطير وغياباتها في الشرق، وهذا الاندفاع الأرعن مع صناعة أحلام اليقظة وخداعياتها على مسرح الغرب، وفي كل هذه المآسي يسكر القاهرون والمقهورون معًا بهذا العزاء الرخيص، ويجتازون بغير دين، أو بديانات وضعية خرافية، كل التخوم والحدود التي تضعها الفطرة وتوحي بها لتكريم الإنسان بالإيمان، والصدق، والطهر، في الحب والعمل، وفي رواية الأخبار والقصص والأحاديث.

بل إن هذا العالم اللامع يصاب أيضًا ببعض "القلق العقلي" فيقول في تعقيب مهزوز الثقة على هؤلاء المستشرقين "ونحن نقول إن كلام هؤلاء المستشرقين وإن كان في جملته صحيحًا إلا أن فيه مبالغة وتحاملًا ظاهرًا"!

ثم يمضي محمد هاشم عطية مع هذه النغمة التي يعلن بها على استحياء أن قول المستشرقين "صحيح في جملته".. فماذا بعد..؟.. إلا أن فيه مبالغة وتحاملًا.. فقط!!

ثم يطيب للأديب العالم – غفر الله له – أن يسهم بعد ذلك في التحامل على العرب بغير مبالغة، أو في مدح العرب بما يشبه الذم، فيقول في دفاع هزيل، أو في هزل له رنة الدفاع "ولو أن العرب عرفوا هذا القصص الأوروبي، وهذا التمثيل، لأخرجوا منه للناس عجبا.."..سبحان الله!

نعم وآه لو عرفوا.. أي لو عرف هؤلاء الصادقون طريق الأكاذيب، وخيالات المرضى، وأوهام السكارى.. ولكنهم والحمد لله لم يعرفوا.. بل إنهم ارتفعوا بأنفسهم وعقولهم عن أن يعرفوا مع مرورهم الطويل العهد بتلك المعابد الوثنية المسرحية التي أقامها غزاتهم على أرضهم، وفي أطراف مدنهم.. إنهم في الطرف المقابل لها أشاحوا عنها.. قبل الإسلام وبعد الإسلام.. فهل هذا لغز؟.. أم إن المتأخرين من هؤلاء الأدباء العرب المستغربين قد طال بهم العهد عن آبائهم.. فهم لهم منكرون!؟.. وفي وعيهم للحياة الأولى يترددون.. بين كمال لم يدركوه عن آبائهم.. ونقص يتباكون عليه بين يدي غزاة أفكارهم.. وديارهم!؟

المدرسة العربية:

في مرحلة متوسطة بين ظهور عملاء الثقافة الغربية الاستعمارية في الوطن العربي من أمثال مارون نقاش ويعقوب صنوع منذ سنة 1848 وبين ظهور مدرسة أوروبية استشراقية متعددة الضربات والاتجاهات التشكيكية لصالح الغرب، والتي برز فيها اسم طه حسين وأحمد أمين وأمين الخولي وسلامة موسى وكثيرون من أشباههم – نشأت مدرسة عربية تجمعت من أخلاط الوسائل العقيمة في تصور الثقافة العربية وهدفها ومضمونها الوثيق الاتحاد بالإسلام. كانت هذه المدرسة التي بدأت من حركة عرابي "عربية" في لغتها وظاهر تمسكها بمحاكاة العربي القديم، ولكنها كانت "شرقية" في تذوقها للثقافة العربية، ورؤيتها الحضارية الجزئية للعرب والإسلام والتراث... معنى شرقية أنها كانت تعاني مما دسه اليهود والشعوبيون في أخبار المسلمين أعراضًا أسطورية..

كانت هذه المدرسة التي اشتعلت شراراتها من بقايا معارك عرابي عن "الهوية العربية" الضائعة في بحر الترك، ومظالم العثمانيين، وعبثيات

الأسرة الأوروبية الخديوية المستبدة بالحكم في مصر، والمتواطئة مع الأوروبيين على أطماعهم في مصر – كانت هذه المدرسة هي الجذوة التي بقيت مشتعلة على الخط الدفاعي الأخير، لتنقل بأصواتها وهمهماتها رسالة الأمل والعمل من الأجيال السابقة إلى الأجيال القادمة، رغم كل العوائق والهزائم، فكان من طلائعها ورجالها في مصر البارودي وحافظ وشوقي، كما ظهر الكثيرون من جملة هذه الجذوة الذين صاحوا وتكلموا وخطبوا وقالوا الشعر في ثورة سنة 1919، حيث كانت تتجلى دائمًا ببعض الومضات العابرة الواعد ببزوغ عصر الجملة العربية الصحيحة، المؤثرة في تشكيل دوافع الحياة من خلال أحداث الثورة التي اتحد بها في ألسنة الشيوخ والقسس والساسة من المسلمين والمسيحيين نظم ومعنى واتجاه "الجملة القرآنية".. التي كانت وحدها هي مبعث الضوء والطاقة والهدف العظيم في معركة الحرية الوطنية ضد الإنجليز، والتي كانت تحمل في أطوائها أصوات وآمال وغايات الانبعاث القومي من أجل وحدة كل العرب على أرضهم بعد إجلاء غاصبيهم.

ثم ظهرت في أعقاب هذه الصحوة، ومع تنشيط الأوروبيين الاستعماريين لغزوة مقابلة، ملامح أدب المعاناة بعد استيعاب الإنجليز للثورة، ومع المعاناة كثرت الزخارف اللفظية، وتعددت الأشكال التعبيرية المحملة بأثقال الزينة، والفارغة من المضمون، على ساحة ضيقة للدوران حول النفس.. وعرف الناس من هذا الطراز كتابات محمود صادق الرافعي..

كان أدب الرافعي وهو يخوض به تلك الموقعة الفاصلة بين جيل عرابي المهزوم وجيل الاستعمار المتشكك مرة عجيبة المذاق لهذه التيارات الفكرية المتصارعة على عقل وإرادة شعب تسعة أعشاره لا يقرأون ولا

يكتبون ولا يستشارون.. كل أدب الرافعي محاولة غير واضحة بين الأنقاض للدعوة إلى المقومات والخصائص العربية في اللغة والدين.. كانت محاولة تنوء بما حمله أسلوب الرافعي من الوشي الشرقي الذي تكاد تغترب به جملته عن "الجملة القرآنية" التي بدأ أدبه منها، وكان كلما أعوزه التدليل على عبقريته تحت شنشنة هذا الوشي وزينته نزع مرة إلى الأسطورية الشرقية في كلام ينحو به نحو عبثيات الجاحظ في البخلاء، أو ترهات الأصفهاني في الأغاني، أو نزع أخرى – على اغتراب منه وارتباك – إلى تذوق الكأس الأوروبية في الأدب القصصي فلمس بأطراف نفسه وتعبيره بعض ما تحمله في أنماطها من استباحة وتصنع وضياع، ليبلغ من أمر أدبيه في بعض ما انعكس عليه الفكر الغربي في عصره بعض ما أصاب أدب المهاجرين من عرب الشام إلى أمريكا في شمالها أو جنوبها من هجنة فاجعة حملت بها الكلمة العربية في مثل كتابات جيران صليبها ومأساتها بالغربة والرمز..!

وهكذا في نهاية عصر هذه المدرسة العربية اللسان، الشرقية المضمون – أي الحاملة لتراث تركي فارسي في فهم الإسلام أكثر منه عربي قرآني – التقى الرافعي في معاركه الاستعراضية والهزلية مع نمور الورق والكتب الأوروبية والترجمات لدعاوي المستشرقين من أمثال طه حسين والعقاد ليتحدد اتجاه جديد للضياع القومي، ويتم به التخلي عن الأثواب الشرقية في مفاهيم وأشكال الأدب العربي، وعن الكثير مما كانت تحمله هذه الأثواب من نقوش ورموز للزندقة والخرافة والدروشة لكي تحل محلها خرافات وجراح أخرى من الغرب، داخل أثواب جديدة للتعبير الوثني بالقصة الخيالية، والقصة المسرحية، والشعور المنثور أو المكسور..!

ولما كنا نتكلم هنا عن فن القصة والمسرح فإننا نقدم حياة الرافعي داخل دوامة مفترق الطرق، لكي نستشهد بتعففه عن معاقرة القصة الخيالية في أدبه بمفهومها الأوروبي، مع إلمامه في بعض اهتزازه بهذا الفن، ومعاناته في الظلمة المطبقة لكي يرى الطريق لجملته العربية حين يريد أن يجعل أفقها القرآن، بينما يتنازعها في رأسه ولسانه طاغيتان في الأسطورة الشرقية، وفي الأكذوبة الأوروبية..!

ولقد واجه الرافعي هذه الأزمة الفكرية بأنواع متعددة من الأجوبة من خلال تلك الأشكال البسيطة لمحاولاته القصصية، المعتمدة أساسًا على قدر من الخبر الصادق، ولكنه واجه الإجابة الصريحة عن سؤال محدد حول القصة الأوروبية وخلو أدبه منها فقال على لسان تلميذه وصاحبه محمد سعيد العريان في مقال نشرته له مجلة الأنصار عدد جمادى الآخرة سنة 1362 أنقل منه ما يلي في جوابه عن هذا السؤال.. يقول الرافعي لتلميذه سعيد:

"ألا ترى أن من يكتبون هذه القصص – أي ببنائها الأوروبي – إنما يكتبونها مدبرين عن الحقيقة، وعن معنى الحقيقية.. وأنت متى كان وجهك إلى الباطل، وظهرك إلى الحق، فمهما تتقدم في رأي نفسك فإنما تتأخر في رأي الحق"!

ثم يقول سعيد أيضًا في نفس المقال عن رأي الرافعي في القصة الأوروبية "وكان يرى القصص نفسها صناعة لهو، ومسلاة فراغ. وهذا قد يكون له وجه في علاج الحياة العملية، وفي تخفيف حدة الصراع الاجتماعي في أوروبا وأمريكا، ولكن ما موضعه عندنا في الشرق. والشرق إنما نعمل في نهضته لمعالجة هذا اللهو الذي جعل نصف وجوده السياسي عدما، ولملء الفراغ الذي جعل نصف حياته الإنسانية موتًا".

ثم يقول الرافعي أيضًا فيما يرويه عنه سعيد العريان في هذا المقال لمجلة الأنصار "ألا ترى أن تلك الروايات توضع قصصًا، ثم تقرأ فتبقى قصصًا.. وإن هي صنعت شيئًا في قرائها لم تزد على ما تفعل المخدرات، إذ تكون مسكنات عصبية إلى حين، ثم تنقلب هي نفسها بعد قليل مهيبات عصبية"!

ولكن الرافعي مع كل هذا الاقتراب من الحقيقة أو القانون الذي يحكم أنواع القصة وفصائلها في العالم لم يتوصل إليه. كان الرافعي في غيابه كتبه الإنشائية مثل "إعجاز القرآن" لا ينظر إلى نجوم الحقائق والمعاني العربية إلا أشباحًا تلوح له من قاع بئره الشرقي. وعندما اشتد عليه أذى من حاربوه من سحرة الدعاية للثقافة الأوروبية على أنقاض المقومات العربية فتنوه بحبالهم وعصيهم فقام إليهم يضرب معهم بعصاه، ليجدد معهم ولكن على طريقته.. وهكذا جنح في أخريات حياته ليجرب على استحياء كتابة نوع من القصص ظن أنه من اختراعه.. قصص قصيرة تقوم على عمود الإنشاء، والوشي اللفظي، يبث من خلالها الحكمة التي يريد بثها، مرتكزًا في بدايتها إلى خبر صادق من أخبار التاريخ، أو إلى سيرة رجل معلوم.

لقد كان هذا بذاته دليلًا على الوهن لا على القوة، وعلى المصادمة لطبيعة اللغة العربية وليس على إمكان إطلاقها في اتجاه قابليات كامنة فيها. ولقد كان هذا بذاته أيضًا هو ما فعله الحاجظ عندما أحدق به عصر دوار السكر بالخرافات الفارسية والأساطير الهندية، فقام إلى "توليفاته" المشهورة بين الصدق العربي في الخبر وبين الإثارة المسكرة في الأسطورة الشرقية كلما حاولت أن تفهم وتستمتع بهذا الصدق. وكان جهده هو أن يضيف إلى الأخبار الصادقة من العبث والإبهام ما يجعلها مثيرة

ومسكرة للقاعد المترف، أو الغافل المحروم. أو كان يخترع هذه الأخبار اختراعًا كما فعل في كتابه "البخلاء" داخل نفس القوالب التي تسير فيها الأخبار الصحيحة في الناس، بحيث لا يستبعد القارئ أن تكون هذه الأخبار الموضوعة هي مما "يجوز" على حد قول الجاحظ نفسه "أن تكون في الناس".. وسنشير إلى الجاحظ وأشباهه في فصل قادم من هذا الكتاب.

هكذا كتب الرافعي من قبيل ما وقع فيه من الإكراه والنبه قصصًا إنشائية حول أخبار صحيحة مثل ما كتبه عن سعيد بن المسيب مثلًا ليعالج مشكلة اجتماعية في الزواج.. أو مثل قصة "اليمامتان" وقد استخلصها من أخبار معارك التحرير العربي لمصر بقيادة عمرو بن العاص.

لم يكن الرافعي بهذا قد عدل عن رأيه الصحيح، أو عمد إلى أن يتناقض مع نفسه.. لقد وقع له فقط ما يقع للمؤمن من "اللمم" ببعض الذنوب الصغيرة.. أو العبث المقصود به الرفق.. أما التناقض والجنوح فكان حقًا لأولئك الأدباء المجاذيب من خصومة.. الذين دقوا الطبول، ونفخوا في المزامير، وحركوا المواكب، وصلوا وراء آلهتهم من أدباء الغرب ومفكريه. فلقد كان على هؤلاء وحدهم أن يقدموا البرهان على صدق دعاواهم الدعائية، وأن يكونوا الطلائع لكتابة القصة الروائية والقصة المسرحية، التي تجمع الشعب العربي وراءها على ثورة تعبيرية بانية، تحوى في مشارقها ثورة فكرية هادية، يتسع بها طريق العرب إلى الحرية، وإلى العدل في علاقات المجتمع، وإلى الوحدة الجامعة لهم وسط هذا العالم المطبق عليهم، والطامع في مواردهم وأرضهم، إلى تقدم وثيق.. وكان كل هذا بينهم شعارًا لا حقيقة فيه!

لقد انساق هؤلاء تمامًا إلى حماقة "الاستغراب" فكتبوا قصصًا ومسرحيات سقطت أمام أعينهم، فلم يتفوقوا بها أكثر مما تفوقوا

بضلالتهم في حرب الحق وأهله. لقد سقطت قصص طه حسين وتلامذته ورفاقه.. سقطت كما تسقط الأوهام المتداعية.. وتبخرت كما تتبخر الفقاقيع في مستنقع.. وبقيت ذنوبهم وحدها بارزة من بعد هذه الأوهام في ذاكرة الشعب.. بقيت ثابتة من جانب هذا الشعب الذي لم تمت لغته منذ آدم، ولم يخفت فيه صوت كتاب الله بالعربية والصدق إليه. لقد ثبت وتأكد أن المجتمع العربي لا يزال في تصميم معماره الراسخ منتميًا بقواعده إلى الإيمان والعربية والعلم، وإن مثل هذه "الهيجات العصبية" في فن القصص الأوروبي لا يمكن أن تكون في تجديد هذا المجتمع العربي وتقويمه، وفي تنميته ودعمه – بديلًا لمعاني ومقومات وموازين هذه "الجملة القرآنية" التي لا تزال في حياتنا، وفي عالمنا، هي وحدها مشرق الصدق والعلم والرؤية الصحيحة للمستقبل.

لقد كان الفارق شاسعًا – في هذه القصص التي نفقت وسقطت لأعلام الدعاية لأدب أوروبا القصصي وثقافتها، والتبعية لها – بين القضية التي طرحوها وبين البرهان المنهار الذي انتهت قصصهم إليه.. ولو قد تعقل من يعيدون النظر اليوم في أدب القصة العربية فاستعادوا الدلالة الحاسمة والقطعية في السقوط المتتابع لهذه القصص الأوروبية التي يكتبها الكاتبون العرب باللغة العربية – لأدركوا في ضوء أوفر من الحقائق – أن طه حسين الذي عاش جيل بأكمله على أنه عميد الأدب العربي – ما كان ليستطيع ولو شرب مياه بحر الروم كلها حتى جبل طارق أن يكتب مشهدًا واحدًا صغيرًا من مسرحية بالعربية تؤثر في العرب مثل ما أثرت أمثال هذه المشاهد في روائع شكسبير في ما كبث أو هاملت أو عطيل.. ولأدركوا كذلك – حتى تتعادل القضية – إن شكسبير هذا، وهو بحق عميد شعراء الإنجليز، ما كان ليستطيع ولو قطع فيافي بني سعد والدهناء والربع

الخالي على قدميه الاثنتين أو على قدم واحدة، أن يرتجل، أو يكتب بهذا الإيقاع العربي الكوني الخالد في لغة العرب بيتًا واحدًا من الشعر يهز وجدان العرب جميعًا في كل العصور، ويحكم فيهم، ويعيش محفوظًا بألسنتهم، ونابضًا في أعمالهم، ومضيئًا على طرق معروفهم، كما كان ولا يزال شأن البيت والأبيات من شعر زهير وطرفة وحاتم ولبيد والخنساء وعروة بين الورد وعمرو بن كلثوم وغيرهم كثيرون من الأعلام الذين أثروا في العرب، وفي العالم، بل وفي شعراء أوروبا وأدبائها في عصر نهضتها، مثل الشاعر الألماني جوته الذي اختبار من أشعار العرب القدماء مختارات تحدث عنها في كتابه "الديوان الشرقي" الذي أكد به – ما غاب عن طه حسين وأمثاله – هذا الطابع الإنساني التقدمي لهذا الشعر العربي الذي كان بدلالاته التقدمية، وعذوبته الإيقاعية، أحد عناصر الحضارة العربية الإسلامية الدافئة التي أذابت البنيان الجليدي والهمجي لأوروبا في عصور ظلامها الطويلة، دافعة بها إلى عصور نهضتها الحيوية بما قدمته إليها من حقائق النظر العلمي، والحس الإنساني، في اللغة والآداب والشعر. فإذا كانت أوروبا برغم كل ما يلفت إليه من التقدم العلمي لا تزال متشبثة بوثنيتها وعدوانيتها، من واقع تشبثها الطبقي بمنابع هذه الوثنية والعدوانية في فنونها الخيالية الخداعية المسرحية والروائية، فكيف يمكن أن تكون هذه الفنون نفسها في هذا العصر أساسًا لتقدم العرب.. أساتذة أوروبا القدماء.. والذين لا يزالون يملكون إلى اليوم مقوماتهم إلى التقدم المتكامل بالإيمان والعلم في اللغة، والدين، والتاريخ!؟

المدرسة الأوروبية:

وننتقل الآن في مجال استطلاع آراء الأدباء العرب عن القصة عند العرب إلى طه حسين الذي لم يكن رغم انشغاله بقضايا مباشرة لتوهين

اللغة العربية، والتشكيك في قصة وجود إبراهيم وإسماعيل بمكة – ليفوته الاهتمام بالدعاية بكل الوسائل للقصص الأوروبي اليوناني، فهو يشجع الرأي القائل بطواعية العرب – الفارغين في نظره من أي مقومات حضارية – لتقبل هذا الفن عن أساتذة العالم عنده وهم اليونان أو الروم!

ويواجه طه حسين أحد العوائق التي تنكر عليه وعلى مدرسته صحة هذا الرأي، وهو الاستدلال على نفور العرب من الفن القصصي المسرحي بأنهم عندما واجهوا الحضارة اليونانية على أرض الأمصار لم يلبثوا – في العصر العباسي – أن أقبلوا على ترجمة كتب الفلسفة اليونانية، بينما لم يقتربوا من المسرح ومؤلفاته بل ولم يناقشوا فكرته وفلسفته أصلًا.

هنا ينشط طه حسين ليصنع الجواب أو ليستعيره من بعض أقطابه من المستشرقين فيقول ملتمسًا العذر للعرب "إن المسرح اليوناني كان قد توقف عن الحياة خلال القرنين التاسع والعاشر، بسبب اضطهاد الكنيسة له، وبذلك فإن العرب المسلمين عندما أقبلوا على "التزود" بعلوم اليونان لم يجدوا على مائدتهم يومذاك إلا الفلسفة وكتب أرسطو.. وبعض الآداب اليونانية المنحطة، وهكذا – كما يقول – أقبلوا على أرسطو وشغلوا به"!!

يريد طه حسين في واحد من إجاباته التبريرية أن يقول "ولو كان العرب قد وجدوا اسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس... إذن.. ولكن.. وأسفاه"!!

وينسى طه حسين – الذي عاش أكثر عمره ينسى – هذه الحقائق الجلية التي تسد على تبريره الواهي كل الطرق:

1- كانت أهم الكتابات في المسرح والدراما وبناء المسرحية هي كتابات أرسطو في كتبه في ذلك الوقت.

2- اتصل العرب قبل الإسلام بالحضارة اليونانية المسرحية، وفي رحلاتهم السنوية إلى الشام للتجارة، ومروا بمسارح اليونان في المدن العربية التي اغتصبوها.. ولم ينخدعوا فيها من أول الأمر فقد عرفوا أنها طقوس مبتذلة في معابد وثنية.. وهذا هو تعريفها الصحيح إلى اليوم.

3- اضطهاد الكنيسة للمسرح اليوناني خلال القرنين التاسع والعاشر يفتح الطريق إلى السؤال عن القرنين السابع والثامن، وهما بداية وذروة ظهور وانتصار الإسلامي بالأمة العربية التي خرجت به.. فلماذا لم يأخذ هؤلاء العرب لا بالفلسفة اليونانية.. ولا بالمسرح اليوناني؟.. سؤال لا يزال تلامذة طه حسين يبتعدون حتى عن فكرة الاقتراب منه!!

وننتقل إلى علم متفرد في المدرسة الأوروبية هو عباس محمود العقاد فنجده في الجواب العملي على الأسئلة المطروحة يؤثر السلامة بعد هزائمه الأدبية المتكررة بأن يأوى في شيبته إلى الكتابة الآمنة الراغدة في سيرة القادة العظام بين العرب المسلمين. لقد أوى إلى ظل سيرة الرسول وأصحابه. وعندما واجه السؤال المباشر عن "القصة عند العرب" حصر إجابته في كلام لو صاحبه فيه بعض الرشد، وتخلى عنه فيه بعض الزهو لانكشف له وجه الصواب المشرق في هذه الحقيقة التي لمس بيده أكمام ذراعها، وارتج عليه فلم يرتفع ببصرة إلى آية وجهها.

يقول العقاد في رؤيته الجزئية "إن الأسباب الموضوعية لظهور القصص المسرحي والفني عند العرب لم تكتمل، ولذلك لم يظهر هذا الفن" ثم يعود فيقول في رطانة المغترب عن تلك الحياة الكاملة التي عاشها النبي وأصحابه مع أنه عاش أفضل أيامه الأخيرة غارقًا في فضل الكتابة في سيرتهم.. إنه يقول "إن حياة المجتمع العربي الصحراوي التي لم تتعدد فيها

أدوار الحياة الاجتماعية باختلاف الأعمال والصناعات والطبقات لا تتهيأ لقيام فن التمثيل، وظهور أدب المسرح، وأن ما كان من العلاقات الاجتماعية "المحدودة" في حياتهم البدوية والحضرية كان يغني عن التعبير عنه ما اشتهروا به من الشعر والفروسية والمساجلات والمناظرات..إلخ".

فالجميع والعقاد معهم يحيلون السبب إلى "البساطة" في حياة العرب. والبساطة هي عندهم ضعف أو قصور، والتركيب قوة ومبادرة، حتى وإن كان تركيبًا للظلم، ومبادرة داخل الظلام. والعقاد برأيه هذا كان يمكن أن يقول كلامًا أفضل لولا هذا الانقلاب الدرامي في قراءاته الكثيرة ضد العرب ومع أوروبا.. لقد كان من الممكن أن يقول إن حياة العرب ببساطتها المستقيمة لم تكن لتسمح بقيام نظام الطبقات، وما يجره معه من الصراع الطبقي. ولما كان هذا الصراع هو الذي فجر المآسي والمشكلات الاجتماعية في أوروبا بما يستوجب التفكير في مواجهتها بوسائل سياسية واقتصادية وأدبية كان منها الرواية والمسرح – فإن العرب اكتفوا في تعبيرهم الأدبي عن سلام حياتهم الاجتماعية بالقصائد والمساجلات والمفاخرات..إلخ".

حسنًا.. وحتى مع هذا التقويم لكلام العقاد فإن كلامه يبقى محتاجًا إلى الإجابة عن سؤال نافذ هو: لماذا – مع وجود القهر الطبقي وتعدد الأدوار الاجتماعية بين السادة والعبيد والقادة والصناع والزراع والمغنين وتجار اللذات وغيرهم من بلاد الشرق مثل فارس – لماذا لم يظهر فيها الأدب المسرحي؟!

سؤال لم يستطيع العقاد أن يجيب عنه لأن الجواب الصحيح عنه ليس مسجلًا في الكتب الأوروبية التي كانت على امتداد يده يأتي بها ليضعها

في "مفرمة" الترجمة في رأسه، لينقل منها ما يشاء كما يشاء إلى لغة العرب!

على أنه في قضية القصة عند العرب لا يمكن إغفال شهادة العقاد من واقع حياته الأدبية الحافلة، على هذا التباين في التكوين والهدف بين الأدب العربي وبين فنون القصص التلفيقي الروائي والمسرحي في الثقافة الأوروبية.

لقد ظهر العقاد بين أقرانه من الأدباء الذين أفرزتهم صحوة التحرر في مصر والوطن العربي باتجاهاته المختلفة، متمتعًا منذ ظهوره بملكات تعبيرية لا يماري فيها أحد بمقياس عصر، كما أن أحدًا لا يمكن أن يتهم العقاد بأنه كان أقل من دعاة القصة والمسرح، أو الذين تخصصوا فيهما – إلمامًا وإطلاعًا على آداب الغرب وثقافته. لا شك أنه بمفهوم كلمة "مثقف" العصرية كان العقاد أعمق وأشمل ثقافة من طه حسين، وتوفيق الحكيم، ومحمود تيمور، وسلسلة قافلة القصاصين والمتمسرحين.. فلماذا انصرف العقاد عن القصة والمسرح.. وعلى أي ساحة للأدب العربي والثقافة العربية تحرك حتى استقر؟

لقد كان لنشأة العقاد ولملكاته التعبيرية الخاصة بالعربية أثر كبير في عزوفه أولًا عن "هلوسة" القصة والمسرح، وفي اقترابه بذلك من منهج عربي في التفكير والتعبير قادة إلى اقتحام واقع المجتمع المصري، والمشاركة أول الأمر في التأثير السياسي بقوة الكلمة العربية المباشرة، والمشاركة أيضًا في المقال الأدبي في محاولة لنقل المجتمع – في ضوء ما بدأ له أنه الصحيح – إلى أقرب نقطة من ديمقراطية الغرب وثقافته.

ولكن العقاد لم يلبث أن أدرك الطريق الرحب، الأقرب والأصدق في حاجات الأمة العربية المعاصرة إلى صحوتها، فتفرغ لكتابة سير الأنبياء

إبراهيم والمسيح ومحمد، ثم إلى صحابة الرسول.. مجتهدًا أن يقدم الأسوة لأبناء الجيل، وأن يقرب إليهم المصدر الحقيقي لنظرية العدل الاجتماعي، ورؤية المستقبل، من خلال القصة التاريخية الصادقة.

وهكذا.. وعلى الرغم من شطحات العقاد الكثيرة فقد كان ولا يزال وسيظل أبقى في ذاكرة الأمة العربية، بقدر اقترابه من أصالتها وخصائصها في التعبير – من جميع فرسان الأكذوبات القصصية، وأبطال أدب الـ Fingêre أي أدب التلفيق الروائي، وادعاء ما ليس له أثر في الواقع.. كما كان يسميه اللاتين.!

ولكن أمين الخولي – رغم كل سيئاته العقلية في هذه المدرسة – يحاول أن يقدم جوابًا هو في رؤيته أقرب إلى التصور العلمي من رأي العقاد، فهو يرى أن الظروف الموضوعية لم تتهيأ في الحياة العربية قبل الإسلام لكي تساعد على قيام المسرح في الأدب العربي يمثل ما تهيأت هذه الظروف في جاهلية اليونان حيث قامت أركان المسرح عندهم على حياة ريفية نشطة ومستقرة، بحيث يساعد استقرارها على تنوع المظاهر التجسيمية للوثنية في حياة اليونان. بينما كانت حياة العربي غير المستقرة، كما كان اعتقاده النابع من هذه الحياة – بعيدين عن أن ييسرا له هذا الاستقرار التجسيمي في وثنيته – كما يفهمها الخولي – وبذلك انتفى عنده الدافع لوجود المسرح..!!

ثم نمضي مع هذا الفكر المسوخ عن العرب، ووثنية العرب، لنتبين قدرًا من الصواب الذي لم يستكمله الشيخ الخولي – عجزًا أو كبرًا – وهو أن العرب مع شركهم بالله الذي عرفوه وعظموه قبل الإسلام. لم تكن لهم أساطير يفسرون بها الحياة تفسيرًا وضعيًا غير إلهي. فلقد عصمتهم بدواتهم وهم يتحركون داخل آيات الله، ويشهدون ويسمعون

شهادتها على الله خالقًا لكل شيء – من التفسير الوثني الذي شاع عن الحياة في أساطير الشرق والغرب. لقد فسروا حياتهم بكل وضوح على أن الله هو الخالق، وهو الأول والآخر، وهذه الحياة البدوية المتحركة بهم في حوارهم الدائم مع الطبيعة والأشياء والأحياء هي التي تنزهوا بها عن أي تجسيم وثني فيما عدا تلك الأحجار الغربية على أرضهم، والمستوردة مثل هبل أو "أبولو" إله الشمس عند اليونان من الشام. وما كان مثل ذلك العارض ليقع – كما يقع دائمًا – في غير فترات الغنى المبطر، واللهو المتسلل بغفلاته من خارج الحدود، ومع التجارة الدائرة على أيديهم بين الشام واليمن، ومن أوروبا إلى الهند.

فهل كان من الصعب أن يتكلم أمين الخولي عربيًا هكذا..؟.. فلن تكون إذن هذه اللكنة التي يرتضونها بالهوى المعلن والمستتر إلى الغرب!؟

ومع ذلك فقد كان الخولي في جوابه أقل شططًا، وأقرب فهمًا، من ذلك الفيلسوف الشيخ زكي نجيب محمود، الذي لا يزال يمشي داخل ظله في دنيا الناس، أو لا تزال دنياه تمشي على رأسها بعيدًا عن الناس، فهو يتصدى لهذه القضية رافعًا في وجه الحقيقية "نبوت" ثقافته الأوروبية التي درج عليها، وتغذى بها – كما يقول – وامتص كل أوهامها.. وهو لذلك يقول "إن العرب لم يعرفوا أدب المسرح وقصته لأنهم عجزوا عن تمييز الشخصيات الفردية بعضها من بعض، ولأنهم – كما يدعي بغير حرج – لم يعترفوا بوجود الفرد مستقلًا بذاته دون أن يكون جزءًا من كل أعم منه"!

ثم يؤكد زكي نجيب محمود هذه التهمة فيقول متعثرًا في عجمة السائح الأوروبي "إن الشرق – أي فارس وتركيا والهند – لم يعرف أشخاصًا، فلم يعرف المسرحية ولا القصة"!!

وهكذا، والحمد لله، يعجز الدماغ الأوروبي فوق كتفي فيلسوفنا "الشرقي" زكي نجيب محمود – عن فهم أن الإنسان العربي قبل الإسلام، وبعد الإسلام، هو هذا الفرد المستقل الإرادة، الحر، الذي يصنع مجتمعه بمستوى القبيلة أو الشعب أو الأمة – باختيار حريته، ليكون مجتمع الأحرار لا العبيد، ومجتمع السواسية والعدل لا مجتمع الطبقة والتميز.. إنه بهذا الفرد الذي يظهر بإرادته في مجتمعه، ولا يذوب أو يضيع في مجتمعه – بقى للعرب مجتمع الدين الحق الذي أقاموه بتسابقهم الصادق إلى غاياته.. ونشروه بأسوة أعمالهم به.. ودافعوا عنه بأموالهم وأنفسهم.. ولا يزالون.

ولكن من ذا الذي يستطيع أن يقنع الفيلسوف الشرقي الأوروبي زكي نجيب محمود بأن الإنسان العربي – الذي يعز عليه فهمه – قد شرب الكثير من الضوء، ونما على كثير من الحرية، والبداء، والنظر العلمي، والإيمان، وأنه بذلك قد أقام مجتمعه على أساس أنه الفرد الحر بذاته وإرادته داخل هذا المجتمع، لا ليشغب على غيره، أو لينتقص من حق أخيه، أو لينزع إلى التسلط عليه، وإنما ليجعل من وجوده وجودًا للجميع، ومن حريته حرية للجميع، وليجعل من دفاعه عن وجود أخيه وحريته ولو بحياته – تعبيره الصحيح والمستمر عن وجوده "هو" وعن حريته وإرادته.

لهذا لم ينشأ الصراع الطبقي قبل الإسلام أو بعده بين العرب، ولم تختلف حظوظ الأفراد في الحياة والحقوق بما يميز بين شخصياتهم، أو يناقض بين مطالبهم.. أو يحول بينهم وبين تطبيق هذا القانون الاجتماعي الأخرى والأبوي على مجتمعاتهم الحرة والمتساوية إنسانيًا قبل الإسلام، بما لم تبلغ إليه أي دعوة مماثلة في هذا العصر، والتي يتم بها تقاسم الأموال الطوعي بين أفراد الجماعة أو القبيلة، أو يتم بها في لغة العرب الأولى "أن يخلطوا فقراءهم بأغنيائهم" بغير حدود، وبغير توقف، بقدر ما تدور الأموال

بينهم، لكي يتعادلوا ويتساووا دائما.. ولذلك لم يقم المسرح قبل الإسلام.. ثم جاء الإسلام بالعدل الأوفى في الشريعة التي تمرس هؤلاء العرب على مقوماتها في حياتهم الأولى حول الإيمان بالله والمعروف.. فلم يقم المسرح أيضًا.. ليبقى وجه الفيلسوف الشيخ زكي نجيب محمود كاسفًا ومنقبضًا حتى اليوم!!

وأما أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة فقد كان عليه أيضًا أن يعطي جوابًا بقلمه الرومانسي، ومزاجه الشرقي، عن هذه القضية التي كانت مجلته أحد الأبواق الدعائية للجانب الأوروبي من أجوبتها. وهكذا كان يسيرًا على الزيات أن يردد نفس أقوال المستشرقين عن "البداوة" وقصورها، و"الدين" وبساطته.. أي أن الإسلام كان بعيدًا بالشعائر البسيطة التي جاء بها وهو يلغي "الكهانة" ويزكي "العلم" ويرفع من قيمة "الإنسان" حتى يتساوى الجميع أمام الله.. هذا الإسلام كان بعيدًا بعالمه البسيط عن عالم الطقوس والمراتب والتماثيل والصور والأيقونات التي عرفتها الوثنية "الفاخرة" عند اليونان قبل المسيحية، وبعد المسيحية أيضًا..!!

ويتناول الزيات بالرجم أيضًا طبيعة الأرض العربية في تعليل غياب المسرح في الأدب العربي، ويزعم أن قلة أسفار الرب كانت كذلك من أسباب قصورهم عن إدراك هذا الخيال الواسع اللازم لبناء القصة المسرحية.. ناسيًا أن العرب سافروا قبل الإسلام حتى وصلوا إلى انجلترا والصين. وأن أول معرفة حقيقية عن الحياة في مستوى أرقى وأفضل قد وصلت إلى اليونان في مرحلة همجيتهم الأولى من مصادر الحضارة العربية في الجزر القريبة في البحر الأبيض من شواطئ الشام وآسيا الصغرى. وأن هؤلاء العرب هم الذين حملوا على طرقهم العالمية تجارة العالم برًا وبحرًا إلى أقصى الأرض، ومع ذلك فإن أسفارهم لم تعلمهم "الخيال الواسع"

بمعنى الكذب.. بل علمتهم الخيال الواسع بمعنى امتداد نظرتهم بالصدق حتى يروا بهذا الصدق ذلك العالم الآخر بعد الموت، حيث لا يكون ولا يبقى غير الله، وأعمال الصادقين، وذلك حيث قال شاعرهم قبل الإسلام:

كل شيء مصيره للزوال غير ربي وصالح الأعمال

من أجل هذا لم يتورع الزيات – رحمه الله – عن الزراية بقومه لأنهم حرموا بسبب الدين والطبيعة الجغرافية نعمة الأساطير والخرافات التي كانت كفيلة – كما علمه معلموه – أن تمنحهم خصائص "الروية والتفكير" و"التعمق في البحث".. ومن ذلك تتولد قدرتهم على بناء الأدب المسرحي مثل اليونان، الذين حملوا أوزار وألوان تلك الخرافات الوثنية في طراطيرها وأثوابها المزركشة.. فكان لهم المسرح.. مع أثقال الظلم الاجتماعي.. وهراء الفكر التجريدي الفلسفي في متاهات الفلاسفة العشرة قبل سقراط.. ومنذ سقراط.. وبعد سقراط.. مما أسقطه أو صححه العلم الحديث!

ولكن سيدة من هذه المدرسة نفسها كانت أعقل من كل هؤلاء الرجال، وأقل محاكاة لأقوال سادتهم المستعربين أو المستشرقين.. لقد كانت سهير القلماوي وهي تلميذة وفية لأستاذها طه حسين – أقرب من أستاذها رؤية للحق، وأنفذ من كل من سبق من رجال مدرستها وعيًا بمقومات الحياة العربية الأولى، في هذه القضية التي قصدت لإبداء الرأي فيها غير مغتربة عن قومها، ولا مغمضة من حواسها وبصيرتها تحت شمس بلادها وسمائها.

تقول سهير القلماوي من مختار ما تميز عقلها بإدراكه، وفي أصح إجابة قرأتها لعدد من عمالقة أو أقزام هذه المدرسة الأوروبية عن هذا

السؤال: "لا يجد المسرح والدراما بيئة طبيعية في إيمان العرب ومعتقداتهم، كما لا يجد المسرح عندهم صراعًا مع الآلهة والأقدار. ذلك أن الإنسان العربي كان بإيمانه في سلام مع الله، الواحد الأكبر، وفي رضى بالقدر لا يحول بينه وبين السعي، وإن حال بينه وبين المصارعة والصراع. الإنسان العربي يتجه بفكره إلى التحديد، فالأبيض أبيض، والأسود أسود. أما الضباب، والغمام، والرمادية، ومنزلة البين بين، فكلها أجواء لا يراح نفسيًا إليها.."

هكذا جمعت سهير القلماوي في كلماتها القليلة، ورؤيتها البصيرة النابعة من ذاتها وليس من محاكاتها – بين ثلاث حقائق منصفة للعرب في بعدهم، وغناهم، عن المسرح والدراما.. وهن حقائق: الإيمان بالله الواحد الحق.. فلا أساطير.. والرضى بقدر الله مع السعي فلا صراع ولا تصارع، وإنما سلام مع الله ينعكس سلامًا على المجتمع.. ثم الصدق العلمي الفاصل بهذا الإيمان بتحديد الرؤية والمواقف.. وهنا تموت الدراما.. التي هي التخليق الوهمي والخداعي للأشياء والأفكار والمواقف وراء أشباح الظلام والظلم والوثنية!

كان بحسب السيدة سهير القلماوي أن تقول ما قالته لتشير بذلك إشارتها الصحيحة إلى نفس الطريق الواحد الذي لا تتحقق للعرب في غيره صحواتهم القومية، وانتصاراتهم الحضارية، السلمية والعسكرية. وهكذا كان الكثير من الإيمان والصدق والرؤية الواضحة والكاشفة لمسرحية بناء "الكيان الإسرائيلي" هي التي عبرت بالقوات المصرية إلى النصر، وإلى تغيير المواقف لصالح العرب، في معارك 10 من رمضان سنة 1973 بقيادة قادة مؤمنين غلبوا بالفن العلمي خداع العدو، وكسروا بالإيمان العملي غرور العدو، فانتصروا عليه".

وتنقل هذه المرة مثالًا من سورية الشقيقة في أقوال للدكتور جميل سلطان في كتابه "فن القصة" الذي تصدى به في الأربعينات للدعاية بكل ما وسعه من المغريات والألوان "الرمادية" عن هذا الفن الأوروبي الذي شملت الخطط الغزو به جميع أرجاء الوطن العربي.

كان جميل سلطان صدى لما سبق من الأقوال، ولكنه كان أكثر إعلانًا عن رغبته في ذيوع القصة الأوروبية.. كان يتقلب على سن قلمه وهو يكتب بين الأمر والرجاء.. فلو كان ملكًا أو طاغية لأصدر أمره بتعميم فن القصة – دون انتظار أثر المحاولات لترويح طقوسه.. ولكنه والحمد لله كان أديبًا رقيقًا، عطوفًا على تقدم قومه وإن كان إلى آداب غزاته، هذه الآداب التي لا تعني إلا مزيدًا من الطمس لآداب أمته.

إن جميل سلطان يقول لذلك في صوت الأمر والاستجداء معًا "يجب أن نثير الهمم لاقتباس ما نحن بحاجة إليه من أدب الغرب"!

لقد أدرك جميل سلطان أن طبيعتنا تقاوم زرع هذا "الفيروس" الخداعي الدرامي في أساليب لغتنا وتفكيرنا وأدابنا.. ولهذا فهو يطلب "وجوب الاهتمام.. بالاقتباس"!!

ولكن لماذا نقهر طبيعتنا على ما نكره.. ولا نعيد تهيئتها لما نحب، وما نتقبل، وما تنشط له وبه؟

نعم.. لماذا نكرهها على هذا الأدب الأوروبي الدخيل.. الملائم فقط لقابليات أصحابه، وجذور لغتهم ومعتقداتهم؟

لماذا نكره طبيعتنا على أدب القصة والمسرح.. إلى حد الاقتباس.. والتصرف في النقل.. الأمر الذي لم يتورع عنه جميع المتأدبين من كتبة القصة باللغة العربية في العصر الحديث؟

obeikandl.com

الجواب عند أمثال جميل سلطان الذي عجم رغم ترافعه الحماسي عن آداب الغرب القصصية عن أن يقدم شيئًا من إبداعه القصصي المسرحي أو الروائي.. سواء عن طريق اقتباس الشكل وهو "الرواية الخيالية والقصة المسرحية".. أو عن طريق اقتباس الموضوعات نفسها لهذه الروايات والمسرحيات بمختلف أشكال التقريب والتعريب!!

ومع كل ذلك.. أي مع عجز الدكتور جميل سلطان عن تقديم قصة عربية أصيلة أو مقتبسة على النمط الأوروبي، فإنه لم يحدث قراءة الذين يلقى عليهم هذا الأمر الثقيل فيقول لهم ويرشدهم إلى هذه الطريقة المعقولة والسريعة التي يمكن بها لأمة لها لغتها وعقائدها وخصائصها أن "تقتبس" خصائص أمة أخرى، أو مجموعة من الأمم، لها لغاتها وعقائدها وخصائصها المتناقضة مع ما عند هذه الأمة.. التي هي الأمة العربية!!

قلعة تسقط:

على أنه كان من الحتم في طبائع الأشياء أن تبلغ الغزوة بالقصة الخيالية والمسرح ذروتها الأليمة أو المضحكة من الألم وهي سقوط قلعة الأدب العربي "دار العلوم" في قبضة الدعاة والمبشرين بالمسرح بعد أن تميزت بهذه الثقافة العربية الخالصة على كليات الآداب وعلى الأزهر أعوامًا غير قصيرة.

لقد بدا للصديق القديم عمر الدسوقي أن يجدد شباب فكره التقليدي بمغامرة يستحدث بها في مناهج الدراسة بدار العلوم دراسة "نشأة المسرح وتاريخه وأصوله" وأن يضع للطلبة وهو أستاذ الأدب كتابًا حول هذه المعلومات التي جاء يدق الناقوس لتعليمها بحماسة الداعية، والمبشر بثقافة الغرب.. بعد أن تجاوزه العمر، وتجاوز دعايته العصر.

يقول عمر الدسوقي في كتابه المذكور الذي سلم به الحصن إلى مقتحميه: "أخذ العرب يتجهون نحو الثقافة الغربية في أوائل القرن التاسع عشر، والقصة الغربية تجذبهم إليها، وقد نقلنا عن الغرب مئات القصص، ثم أخذنا تقليدهم في كتابتها، ولازلنا حتى اليوم ننقل إلى العربية كثيرًا من قصص الغرب، ولكننا لم نعن بدراسة فنون القصة وأصولها العناية اللازمة، ولذلك تخلفنا في إتقان القصة حتى اليوم، ولم ينبغ منا إلا نفر قليل في هذا الميدان..!

وهكذا من البداية يخطئ عمر الدسوقي، أو يبرر، عندما يدعي أن العرب اتجهوا نحو الثقافة الغربية ومنها القصة الأوروبية، ويخفي وراء "الستار" حقيقة الإكراه الاستعماري، وجهد العمالة والترويج لهذه الثقافة، مع جهود الطمس والتوهين والقتل البطئ لمقومات اللغة العربية، بل قتل اللغة العربية نفسها، وتبديد إيقاعها في المجتمع، وتفريغها من أصواتها الحية حتى يخلوا الجو للأوزة الأوروبية لتبيض على أرضنا وتكاكي برطاناتها وقصصها وخداعها الجذاب كما يسميه الشيخ عمر.

نعم وعمر الدسوقي يتوهم أيضًا بتدريسه مادة القصة الأوروبية والمسرح إمكان تحول هذا الفن الدخيل الذي لم يتجاوز في بعض العواصم العربية كما يقول في كتابه "حب المرح والتهريج" – إلى فن أصيل.. ناسيًا أنه من غير الطبيعي أن يتعلم الإنسان حب ما يكرهه بطبيعته، أو أن يخرج عن ذاته الناطقة في لغته، والحاضنة له في طبيعة بلاده، وتراث تاريخه، حتى وإن كان تحت سلطان الغالبين، ومخططات غزوهم الثقافي بثقافة هي بوثنيتها وعدوانيتها وطابعها الطبقي ورطانتها – أبعد عن أن تشبع حاجات الإنسان العربي إلى التقدم بلغته ودينه وإنسانيته، وصدقه العلمي، وسلام نفسه.

وهكذا فإن عمر دسوقي سيبقى ما شاء الله داخل دار العلوم، وعلى باب دار العلوم، يعزف بكتابه المدخول عن المسرح على أرغن بغير أصابع، ويدعو إلى مذهب بغير برهان.. إلا إذا انتبه فتذكر واستدرك.. وأعطى وجهة مرة أخرى للحق والصواب.

عودة الوعي:

ثم نعرض أخيرًا في هذا الفصل إلى الفنان الذي تخصص لفن القصة والمسرح، مترهبًا وراء أسواره، وراغبًا عن غيره، ومتسمًا بأكثر الخصائص التي تجعله علمًا فيه، والمبرز الذي جاء ليكسر قانون التأبي والتمنع في لغة العرب على هذا الفن الأوروبي المتغلب.. نعرض للقصاص وكاتب المسرح المتفرغ توفيق الحكيم، لننظر هل انكسر هذا القانون الذي يستعصي به الأدب العربي – ليكون أدبًا عربيًا – على فن القصة والمسرح الأوروبي.. أم إن القانون – مهما كانت الأقنعة – ثابت وصحيح؟

إننا سننتظر في استكشاف عابر هل توفيق الحكيم هو "الحلقة المفقودة" – كما يريد هو أن يوحي للناس – على طريق تطور الآداب العربية إلى فن القصة والمسرح..؟ أي هل هو في أحسن الفروض "إنسان" المسرح العربي الأول متطورًا بلغة دارون ليكون أول من يمشي على قدميه، ويبني هذا المسرح بين العرب، والذي سيتناسل منه مسرحيون عرب كثيرون وكثيرون أم أنه هو في حقيقته، وبمفهوم "الانقلاب" أو "التطور العكسي" بلغة أرسطو عن الدراما ليس إلا ظهور الحجة على العجز، والبداية إلى عودة الوعي للكثيرين من الأدباء الذين أصيبوا بالشتات بين المفاهيم "الشرقية الفارسية التركية الهندية".. والمفاهيم "الأوروبية اليونانية الفرنسية الإنجليزية".. لكي يبحثوا من جديد في تراثهم عن الأمل المفقود.. والأدب الحي..!

إن توفيق الحكيم، المتوقر في ظاهره، والمتذوق من داخله، والنواسي في حب الشرق، والتقليدي للشرقيين في النفور مما هو عربي أصيل، والمنتمي بحسب جيله وثقافته وحرصه – إلى أوروبا بلاد الغالبين، وأرض الحجاج لألقاب العلم، ومصدر الرموز الجديدة في كهانة الأدب – إن توفيق الحكيم قد قفز رغم هدوئه، وتعدد أطوار نشأته، قفزة شرقية بعيدة المدى في حب الغرب، ليجمع في فكره وأدبه بين حب الشرق وحب الغرب معًا.. ومع التزام الجفاء دائمًا لكل ما هو عربي أصيل!

كان أبو نواس الشاعر الشرقي الطروب – سعيدًا في تمرده بشعره وسلوكه على آداب الإسلام، وفي استخفافه بشعر وآداب العرب، وفي مثل هذا التمرد والتشفي، والغرق في اللهو والخمر، قاعدًا ذليلًا يستجدي ويسكر.. كان يقول سخرية بالإنسان العربي الراحل الحر:

قل لمن قام على رسم درس ما ضره لو أنه كان جلس

واحتفظ توفيق الحكيم بهذا المزاج الشرقي باتجاه الغرب منذ فتح قلبه لباريس، ولثقافة وأدب فرنسا، ومنذ تعلم التهام القصص الفرنسي بنفس الولع الذي كان يلتهم به طبقة المفضل من "المكرونة" الإيطالية!.. وأصبح دون حرج مع نفسه، ولامع الناس والأشياء – شرقيًا أوروبيًا.. طالما أن طابعه الشرقي الغربي لا يلزمه اعتقادًا معينًا، كما لا يحول بينه وبين هوى غلاب.

في كتابه "عصفور من الشرق" يبوح توفيق الحكيم بالكثير من أسرار نفسه، ويكشف عن مفاتيح شخصيته الكثيرة الطقوس والشخوص، بينما هو أمام قارئه يتجرد له عن شغفه، ويستعيد للفن كما يعشقه مثالًا عن زركشات عصر الاستسلام العباسي للأهواء الفارسية الكسروية الشرقية.

لقد كان في كتابه هذا وهو يطوف بالقارئ العربي معالم المسرح في باريس، وبالكنائس، وبالمقاهي والفنادق وحوانيت الكتب – يدندن بأناشيد من يطوف بآلهة مقدسة، بينما وهو يقفز من هنا وهناك يغرد كعصفور شرقي، ينقر على كل غصن، ويسجد لكل جمال، ويهتف بكل معبود، وهو يذكرنا بشعر جلال الرومي الذي توحدت أمامه الأوطان والأديان حيث يقول:

"أيها النور المشرق.. لا تبتعد عني.. أنظر إلى زنار زرادشت حول خصري.. أحمل الزنار.. وأحمل المخلاة.. مسلم أنا.. ولكني نصرا براهمي وزرادشتي.. ليس لي سوى معبد واحد.. مسجد.. أو كنيسة.. أو بيت أصنام"!!

في باريس.. وفي القاهرة أيضًا.. لبس توفيق الحكيم في قصصه وأفكاره زنار الشرق والغرب معًا.. ثم عاد فاستدرك ليقول: إن الشرق استكشف السماء، وإن الغرب استكشف الأرض.. ولذلك فهو يريد بالحج إلى الغرب، وبمحبة فنون وثقافة الغرب، وزيارة الكنائس والمسارح في الغرب – أن يؤكد لنفسه قدرته على أن يجمع بين السعادتين، وأن يتنقل بلسانه بين المذاقين والطعمين.. لأنه في السماء كما في الأرض بحسب زعمه: مساجد وكنائس.. ومساح ومكتبات.. وعشق وخمر.. وإلحاد وتبتل.. ودعوة أيضًا إلى فتح أبواب الجنس الصريح للجماهير.. وعلى مهل.. ولم لا.. أليس هكذا في تحرر أهل باريس تلتصق أجسام العشاق وتهتز على حوائط شوارعها.. على نغمة الاسكرتز والراقصة.. أو ليس ذلك التحرر الجنسي صحة.. وقوة.. وحضارة عظيمة!؟

ويعلن توفيق الحكيم في ذروة شبابه – في عصفور من الشرق – عن أعظم رحلات حياته إذ هو في باريس يبحث عن الوجه الذي يحبه.. يبحث

عنه في الكنيسة.. وفي المسرح.. وفي المطعم.. وفي المقهى.. وهو يتصفح الوجوه.. ويغرد لنفسه بأشعار إسحاق الموصلي بعد أن وجد هذا الوجه لشادن لم تر باريس مثله.. إنه وجه بائعة التذاكر في مسرح الأوديون!

ويعلن توفيق الحكيم على لسان هذا الشرقي الأفرنجي "محسن" وهو يكتب إلى شباب مصر بهذا الخبال التحرري الباريسي في ظل عصر الباشوات والأحزاب، واشتداد غزو الثقافة اليونانية، وانتشار المسارح في شوارع اللهو لخدمة جنود الاحتلال – أن آلهة باريس الحضارية قد كشفت له عن سرها بعد صبره الطويل، وبعد طوافه الملهوف بهياكلها، حتى وصل إلى مسرح شانليه ليسمع السيمفونية الخامسة لبيتهوفن.. ليسمع إلى "الصوت الإلهي البشري" في "عالم بيتهوفن الذي لا تدخله إلا النفوس المهذبة"!

ويحكي توفيق الحكيم أو محسن عن "السكون القدسي" الذي خيم على المسرح عندما ظهر رئيس الفرقة بعصاه الصغيرة.. وعن شعوره بنفس الحشوع الذي خامره في الكنيسة ذلك اليوم.. وعندما تحركت يد الأستاذ: "إذا بيتهوفن يتكلم للغته السماوية، قوية أول الأمر في ذلك الأليجرو – السريع النغم – ثم حلوة بعد ذلك كأنها أصوات الملائكة الصافية في ذلك الأنداتت الهادئ – بطئ النغم – ثم فياضة بالسرور الداخلي من ذلك الاسكرتزو المشرق – الحركة الراقصة – إلى أن تنتهي منه إلى ذلك الفرح المتفجر من أضواء وأنغام البرستو الأخير – أي السريع جدًا والختامي - ...!".

بهذه النشوة القدسية كما يسميها توفيق الحكيم، وبهذا الغرق فيما يشبه بحر الحلول الصوفي بالأفرنجي – وبهذا الغياب عن "الوعي" الذي تحتاج إليه مصر من أبنائها، وبالذات من أصحاب المواهب والرؤية

الأشمل من طلائعها ومثقفيها – يتكلم توفيق الحكيم بلغة الوارث المبدد، وابن الطبقة المترف، من خلال مشاعر لاهية مزركشة بكل الألوان، ومستبطنة لكل الانتماءات.. يتكلم إلى قرائه الذين لا يزال نحو 70٪ من رجالهم ونسائهم لا يقرأون ولا يكتبون – حتى اليوم – بينما هم يكدحون تحت مستوى كفاية الإنسان وحاجاته الأساسية، ليزرعوا حقول مصر، وليضعوا الخبز واللحم والزهر على مائدة الأديب الشرقي الكبير، الذي ينام أكثر لياليه – فوق هموم هؤلاء الشرفاء – مستدفئًا في أحضان الأندانتي والأسكرتزو!!

ولكن توفيق الحكيم يفرق سريعًا كعادته وذلك لينصح صديقًا أوربيًا أراد أن يزور معه الشرق فهو يقول له في كتابه عصفور من الشرق "مهلًا أيها الصديق.. إن تلك الأنهار التي تريد أن نشرب منها قد تسممت كلها.. لقد قضى الأمر ولم يعد هناك نبع صاف، فإن الزهد قد ذهب كذلك من الشرق. وإن ثياب الشرق الجميلة هي اليوم خليط عجيب من الثياب الأوروبية يثير منظره الضحك، كما يثيره منظر قردة اختطفت ملابس سائحين من مختلف الأجناس وصعدت بها فوق شجرة ترتديها، وتقاد حركات أصحابها"!

وهنا نصل إلى ذروة المأساة في فكر توفيق الحكيم الذي انتزع مع بعض رفاقه بعضًا من هذه الثياب الأوروبية ليدخل فيه، ويقلد به قصص الأوروبي وفنه المسرحي، مجتهدًا أن يتخير تخبر "الواعي" ما يظن أن تقليده يروج ... وليس ما يرى أن موضوعه ينفع..!

إن توفيق الحكيم واجه مثل غيره هذا السؤال عن الفن القصصي المسرحي عند العرب وأجاب عنه إجابة صحيحة في مضمونها، وهي أن هذا الفن لا جذور له في أدب العرب، ومن هذه النقطة يتسلم هو في بداية التطور

العكسي هذه "المهمة العظمى" لسد فراغ ألفي سنة أو يزيد من حاجة الأدب العربي إلى هذا الفن الأوروبي بكل خصائصه.. كما يزعم لنا بتواضع شديد وهو يقدم لمجموعة من مسرحياته!

يقول توفيق الحكيم "إن أي مؤلف مسرحي أوروبي معاصر إنما يعمل اليوم وقدمه مستقرة فوق تجارب ألفين من السنين.. تجارب راسخة في أدب بلاده منذ عهد الإغريق.. أما في بلادنا ولغتنا وأدبنا – فميدان التجربة في التأليف المسرحي ضيق محدود، لأن أدبنا العربي لم يعترف بالأدب المسرحي قالبًا أدبيًا إلا منذ سنوات قلائل، كما أننا لن ننقل إلى لغتنا من أدب المسرح القديم والحديث إلا منذ سنوات قلائل أيضًا"!

ثم يستمر فيقول ليحدد مهمته في الأدب العربي ويبشر بها "فالمؤلف المسرحي المعاصر ينهض اليوم على فراغ، أو شبه فراغ، من تجارب قليلة. وهو يعمل وخلفه فجوة هائلة لم تملأها جهود السابقين على مدى الأجيال.. هذا إذن سر رحلتي القلقة في كل الجهات، فأنا أحاول في قلق جنوني أن أسارع إلى ملء بعض الفجوة على قدر إمكاني وجهدي، وأنا أقوم في ثلاثين سنة برحلة قطعها الأدب المسرحي في اللغات الأخرى في نحو ألفي سنة"!!

أرهام البطل:

هذا إذن هو إسخيلوس اليونان يخرج من وفاته عند سفح التل العاري بأسفل الاكروبوليس، حيث كانت تمثل له أقدم مسرحية وصل للمعاصرين نصها منذ سنة 490 ق.م لكي يظهر على أرض وادينا المشمس بعد نحو ألفين وأربعمائة من السنين.. لكي يظهر ويعيد على أرض النيل

فنـون اليونـان بلغـة العـرب، ولكـي يمـلأ بسـواعده القويـة علـى التقليـد والمحاكاة للقصة والمسرح هذه الفجوة الكبيرة في آداب اللغة العربية!

هـذا إذن هـو البطـل في مسـرحية "التـأليف المسـرحي" العربـي يولـد في قلقـه الجنـوني.. حاملًـا بهـذا القلـق مخايـل أسـلافه مـن بنـاة المسـرح الأول إسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس – والمحنون تسيبيس من قبل – وكل مـن مجـدوا مـن جمـاهير اليونـان السـكارى والمحظـوظين، والزامـرين والراقصين، أمجاد سيدهم ديونيسيوس إلاه الخمر، وحملوا تمثاله الفاخر من معبده حتى يضعوه في وسط السـاحة.. ليـدور مـن حولـه التمثيـل ليلـة بعـد أخرى!

نعم.. هذا هو عبقري لمسرح الأول على أرضنا.. هـذا هـو صوت "ثغـاء الماعز" المقدس ينـزل على لسـان رجل من بيننـا في مصـر ناطقًـا بالتراجيديا عربيًـا.. بعـد حرمـان ألفـين مـن السـنين.. هـذا هـو البطـل توفيـق حسـين الحكـيم.. فليقـل لنـا البطـل إذن كيـف فعـل بهـذا الفـن الأوروبـي في بلادنـا وهـو يركـب عربـة أسـلافه، ويظهـر في ملامحهـم، وحلـق في الخيـال بـأجنحتهم.. مـاذا قـدم خـلال ثلاثـين سـنة مـن شـوامخ عالميـة، ومـن مفـاخر وأمجاد مسرحية!؟

ما هو العمل المسـرحي الواحـد الـذي نجـح مـن بـين عشـرات القصـص التقليدية، تحت العادية، التي كتبها توفيق الحكيم في مسرحه الـذي بنـاه شامخًا للعرب؟.. ما هـو العمـل المسـرحي الواحـد الـذي طافـت بـه المسـارح في مصر والوطن العربي وأرجاء العالم، فانشغل به الناس، وتطـور بـه المسـرح، وتقدمت به الإنسانية خطوة واضحة إلى الأمام؟

لقد كتب هذا الفنان الشـرقي الغربـي، عاشـق بـاريس، عشـرات مـن القصص، التي تعب كما يتعب "الرفاء" في خرازتها وترقيعها من حصيلة ما

خلعته عليه آداب الغابرين والمحدثين في أوروبا. ولكن المشكلة كانت أكبر من مخرازه، والفجوة كانت أوسع من وهمه. لقد تسلح في باريس على يد مدربه الفرنسي العجوز بحرفة خرز "الحوار"، وامتص من كتب الفلسفة والمعتزلة والمتكلمين طقوس علم الكلام، ومخادعات العقل، ولكن كيف كان يتأتى له بكل أدواته وطقوسه وأحلامه أن يقهر اللغة العربية "الدينية" المبيتة على أن تمسخ من خصائصها، فتدخل بسحره في عباب أوهام الدراما، وتضع به على وجهها النقي أقنعة الخداع العقلي، والإيماء واللمز، وتثغو ثغاء الماعز الجبلي؟!

كيف – وهو يعترف في بعض صحواته بالعكس – كان يمكن أن يقع هذا "الحدث" الذي تتناقض به السنن، ونحتل به اتساق حقائق الوجود، فتقيم لغة القرآن المبينة مسرحًا وثنيًا في دعائمه وأهدافه، وأن يحمل الصدق في طبيعة لغة الدين حملًا غير شرعي بأهواء بعض المسوسين المحدثين.. لبلد بأصواتها على المسرح ذلك الحلق القميء من الأكذوبات الإغريقيات.. الوثنيات!

ولكن توفيق الحكيم مع مغامرته بادعاء بطولة التأليف المسرحي بالعربية، وانتحاله رسالة ملء الفجوة المسرحية في آداب العرب – لم يكن ساذجًا إلى الحد الذي يصدق فيه كل أوهام نفسه، فلقد لمس برودة الواقع واستخفافه به في هذا الفشل الذي وطئ بأقدامه الغليظة أعناق أمانيه، وانزوى بكتبه رغم الجهود التي نشطت لترويجه. وهكذا ألجأه حوراه مع نفسه إلى وهم أكبر يتحصن به هو "البرج العاجي"..!

لقد فشلت أمام عينيه أول أعماله "أهل الكهف" وفشل مثلها كل ما لحق بها من أخواتها، لأن هذه الطفيليات الأدبية لا تزال بملامحها وطبيعتها الأوروبية "رطانة" في مجتمع عربي لم يفقد خصائصه رغم تخلفه. وهكذا زعم البطل – كما يقول في كتابه "أدب الحياة" أن المسرح المصري "كان

وقت ظهور مسرحياته في حالة احتضار حقيقي"!.. ولذلك فقد ألحق مسرحياته بالأدب النظري.. وأغلق على نفسه البرج!

والتناقض في هذا الزعم أن المسرح المصري أو العربي لم يوجد بعد – وقد أقر هو بذلك في حديثه عن الفجوة – فكيف يكون هذا المسرح قد ولد.. ثم اعتراه المرض في طفولته التعسة.. ثم ها هو ذا يموت.. والبطل ينظر عاجزًا إليه؟!

والتناقض بعد هذا أيضًا هو ما زعمه البطل عن نفسه أنه قد جاء أخيرًا ليملأ هذه "الفجوة" على قدر إمكانه وجهده، وهو الذي يقول في كتابه "أدب الحياة" في أسباب ضعف المسرحية العربية "إن ضعف المسرحية في الأدب العربي أمر طبيعي لأنها نوع لا يمت بصلة إلى أصول هذا الأدب" وهكذا بدلًا من أن يعالج توفيق الحكيم بعقلية القاضي المتزن – لا عقلية الفنان الشرقي – بحث أصول الأدب العربي حتى يتبين له أنه من غير الطبيعي توليد أدب من نقيضه، كتوليد شجرة الصنوبر الجليدية من نخلة المناطق الحارة.. والنخلة أنفع لأهلها.. والصنوبرة بأصحابها أحق.. إنه بدلًا من هذا الموقف المتزن يشطح توفيق الحكيم بقلقه المجنون فيقول في تجاهل متعمد إن هذا "التوليد" أو "التخليق" القسري ممكن "في أزمان طويلة". ربما في الأزمان التي تكون بعد انهيار الحضارة الأوروبية المعاصرة.. وبعد أن يزحف الجليد في العصور القادمة جنوبًا حتى يدرك الوطن العربي فيصبح هو يونان المستقبل.. وحيث تبدأ من جديد مواكب عبادة إله الخمر.. وأغاني الجنس.. وصراخ مسرح وليد بجوار طيبة أو الأقصر.. وحيث تبتل في قبورها طربًا بقايا عظام أدباء هذا العصر من العرب الذين نسوا أنفسهم ولغتهم وتاريخهم.. وسجدوا من أجل الفن القصصي والمسرحي باتجاه الشمال.. والجليد.. وأرض العدوان القديم!

ولكن توفيق الحكيم في تناقضاته الشرقية الكثيرة يجلس أخيرًا – في هذا التعقيب على جهوده ومحاولاته – جلسة القاضي ليحكم على كل عمله وعمل أمثاله بنظرة أصدق إلى المستقبل من خلال وقائع الحاضر حول القصة والمسرح فيقول في نفس كتابه أدب الحياة.. وليته وعى ما يقول.. أو وعاه غيره عنه "ومهما يكن من أمر فإن طابع المسرحية والقصة القصيرة بما فيه من ضغط وتركيز، وإيجاز وتلميح، هو الأدنى إلى طابع العصر الحديث ومستقبله القريب".

ثم يمضي فيقول من نبوئته العلمية التي لم تفده شيئًا "ومن يدري؟.. فقد تدور الأيام دورتها وتصبح "البلاغة" في عرف العالم القادم، كما كانت في عرف الأدب القديم، هي بلاغة الإيجاز، يفرضها على العالم اليوم عصر السرعة.. كما فرضتها قديمًا عند العرب الرحل سرعة تنقلهم بين واحات الصحراء.. فالسرعة في كل زمان ومكان تنمي في الإنسان سرعة الإدراك، وسرعة التلقي والاستيعاب، فيتخذ الفن تبعًا لذلك من القوالب ما يتفق مع العصر والحياة".. انتهى.

ولكن توفيق الحكيم.. الذي لا يصبر على مزاجه الشرقي.. ينسى ما يقوله في بعض ومضات الصدق العلمي والإنساني في مجلس قاض يحكم.. ينسى أن الأيام تدور، والزمان يدور، وأن على العاقل أن يعقل عقله حتى لا يدور.. لقد نسى توفيق الحكيم في سباقه من أجل القصة الخيالية والمسرحية أنه يركب جوادًا من الخيال على أرض الواقع الذي أغمض عينيه عنه، وفتح يده فقط له.. حتى كبا به جواده أخيرًا فسقط.. سقط وهو يخسر رحلته الطويلة التي جمع فيها بين مرح الفنان، وحكمة المجنون، وإصرار العاشق، وحرص الشحيح.. لقد خسر كل رحلته.. وكبا على جواده.. وتحطمت على مشهد من الناس كل واجهاته المسرحية وهو يدافع عن نفسه.. وعن رحلة حياته التي خسرها كلها.. في واقع أليم لا

مسرح فيه.. رحلته ما بين "عودة الروح" كما زعم.. وبين "عودة الوعي" كما أقسم.. فلقد أقسم حانثًا كما يعلم!

الثورة والطريق:

ولكن الثورة المتفجرة من معين أصالة الشعب، والمتدافعة في عبابها بعصارات صمته وكلامه، وصبره وآلامه، تقطع الطريق فجأة على المدرسة اليونانية كلها.. المدرسة التي صنعها المستشرقون والمستعربون والمبشرون.. وصنعتها الأصابع الصهيونية والاستعمارية في الجامعات الأوروبية التي نرسل إليها أبنائنا شرقًا وغربًا قبل أية حضانة فكرية، ودون أية حصانة قوية.. لقد جاءت الثورة آية ودرسًا، ورحمة وعقوبة.. وتبددت أحلام كثيرة مجنونة في الهواء، وجفت بعض الألسنة من الروع في الحلوق، وغارت بعض الأعين من المفاجأة في المآقي.

لقد تحطم أمام طه حسين أكبر الأصنام التي نحتها من عشق الأوليمب وحجارة الأكروبول.. صنم الإقليمية المضاد للقومية العربية.. صنم الولاء لحضارة بحر الروم، ولثقافة اليونان في الشمال الغربي المقدس من بحر الروم.. البحر الذي كان قبل الروم والرومان بحرًا عربيًا.. والذي صار بعد إجلاء جيوس الروم والرومان عن بلادنا بحرًا إسلاميًا.. لقد سقط هذا الصنم الكبير أمام طه حسين الذي استمع إلى صوت تشهم صنمه، وأصغى مليًا إلى أشلاء الصم المهشم وكأنها تعاتبه.

لقد سقط حلم طه حسين في إقليمية مصر، وتغيير قبلتها إلى أرض اليونان بدلًا من أرض الدعوة وتاريخ الدين باتجاه مكة والبيت ومقام إبراهيم وإسماعيل لقد سقط هذا الحلم كما سقط من بعده بثورة مصر حلم فرنسا في استحقاق الجزائر العربية، رغم عروبتها، إلى الجنسية الفرنسية تحت عنوان خداعي مثل "قدسية بحر الروم" هو قومية "الأماني

المشتركة" التي تحكم كلًا من فرنسا والجزائر في أوهام دعاة الاستعمار وطغاته.. لولا حكمة قائد واقعي غير مسرحي هو ديجول.. ولولا مساندة مصر بالعمل لا بالكلام.

لقد سقط الصنم الإقليمي المزدان بالكثير من الوشى والخرز والقرابين، واستقام بالثورة حس الشعب القومي، واستقر في سياسة مصر ما حاول الإنجليز والفرنسيون والخديويون من قبل أن يطمسوه من عروبة مصر، وأصالة مصر.. وغدت مصر – كما هي بطبيعتها – جزءًا نشطًا من الأمة العربية، تحيا بوحدة هذه الأمة، وتكابد مع أجزائها الأخرى كلما وقع الشتات، وعاثت الفرقة.

لقد سقط بالثورة مستقبل مزعوم للثقافة في مصر على أساس التبعية للغرب، ولجذور الغرب في اليونان، وعادت مصر ومعها شعوب عربية تأثرت بها إلى أثوابها الأصيلة، في عقيدتها وثقافتها، لتعيد في ضوء العصر قياسها على قدر حاجتها، وتجديدها بقوة فكاكها من أسرها، وتنمية أصواتها الصحيحة في التعبير بها عن ذاتها المتقدمة، وإرادتها الحرة.

وسقطت أيضًا أمام تلك المدرسة الغابرة أكثر الخطايا والامتيازات التي استأثرت بها الطبقة من بقايا الحكم العثماني والمملوكي.. من بقايا المماليك السادة.. والناعمين الطغاة.. لم يعد أي مصري متهمًا بأنه "باشا" يسعده اللقب والقيد الذي يخلعه عليه سيده الملك.. فلقد كان الطغيان وامتياز الملوك والأغنياء جزءًا من تركيب الديمقراطية اليونانية" الزائفة.. وبالثورة سقطت رموز هذه الأوزار!

وسقطت أيضًا أمام تلك المدرسة الأدبية الغابرة هذه السهوة القاتلة عن مواجهة المخطط الصهيوني الاستعماري بزرع إسرائيل بكل موبقات الغرب واستعماره وصهيونيته في قلب العرب.. زرعها في موضع "المسجد

الأقصى" الذي هو طرف المحور، والعمود الأساسي لصرح الوحدة العربية، مع "المسجد الحرام".. لقد كانت مصر والعرب قبل الثورة في نومه الغائب في كل مخدرات التخلف.. ومخدرات المدرسة الأوروبية.. مدرسة الصفوة الارستقراطية المتميزة من المسوسين بالقلق الجنوني، والسكارى بخمر باخوس.. وباريس ولندن.. فرسان مدرسة الروم.. والقصة الخيالية والمسرح.. ونظريات المستشرقين!!

وسقطت أيضًا أمام تلك المدرسة الغابرة تلك الواجهة المضللة عن صورة الدولة التي تريدها هذه المدرسة.. الدولة العلمانية التي انتصرت على الكنيسة في أوروبا.. وعليها أن تنتصر على "المسجد" في الوطن العربي.. كأنما المسجد كان مجمع كهان، أو رجال دين طقوسيين معتمين مطلسمين.. وكأنما "المسجد" ليس هو قلب كل مسلم.. أو كأن قوائمه ودعائمه في قلب كل مسلم ليست مهيأة ليرتفع منها الصوت، وينتشر منها الضوء.. وتتحدد في محرابها القبلة الواحدة.

لقد سقط الاحتمال السريع لقيام النظام العلماني الذي يبيح قتل الحريات باسم الحرية، ومحاربة الإيمان باسم التقدم، وسفك دم الطهارة الأخلاقية، واستعباد المرأة لتجارة الجنس، باسم التحرر. ومع سقوط هذا الاحتمال برز من الظلام الطويل الذي عاش فيه شعبنا المطالب بالحرية والعلم والإيمان هذا الاحتمال الآخر.. الاحتمال الحتمي الذي برز بمقومات واقعية، ساطعة بنورها الذي يشق الظلام: بينما يحكي مرحلة بعد أخرى آمال هذا الشعب الذي صحا.. ليجاهد بقلبه وعقله.. وبأصالته وعصريته، من أجل أن يبني دولة العلم والإيمان.. والعدل والسواسية.. والرخاء والتقدم.

obeikandl.com

الفصل الثالث

المستشرقون يتهمون العرب بقصور الخيال القصصي

obeikandl.com

obeikandl.com

الذهب الأفرنجي:

عندما عاد مارون نقاش من إيطاليا إلى بيروت سنة 1846 حاملًا معه في سلته أول جراثيم وبكتريا – الغزو المسرحي للعرب في العصر الحديث – بعد تلك المحاولات التي فشلت على عهد الاستعمار اليوناني والروماني الطويل للوطن العربي – صاح يبشر قومه في بيروت بأنه جاء إليهم ومعه "الذهب الأفرنجي المسبوك" وكان هذا هو أدق تلخيص بلسانه لجريمته، التي تسلمها منه على أثره رجال الإرساليات التبشيرية في بيروت وغيرها.. وأي تلخيص يكون أدق من أن يقول مارون بأن "المسرح" هو فن أوروبي خالص، وأن يلقي الضوء بهذا النص، وهو عميل للثقافة الأوربية في بلد مهزوم على عمل المبشرين الذين كان ولا يزال أهم أعمالهم في خدمة الاستعمار الأوروبي هو محاربة الإسلام، وطمس اللغة العربية.. ومن أجل هذا شاركوا بنشاط خفي وعلني في تأسيس المسرح، الذي يتحقق على خشبته تفتيت الدين واللغة..

وأنشأ مارون نقاش مسرحه الذي أطلق منه على العرب أول رصاص الكلمات الأوربية الشقراء، الزرقاء العيون، المصبوغة الوجه القبيح بشتى الألوان.. مترجمة في لغته العربية الركيكة.. وهو يعرض رواية "البخيل" لموليير.

لقد كان هذا الذهب الأفرنجي المسبوك، في المخطط الاستعماري المحبوك. يتدفق من أول الأمر من عناصر وثيقة الاتصال بالاستعمار – عمالة أو غواية أو عماية – وكان في مقدمة هؤلاء العملاء كما يقول عمر الدسوقي في كتابه "المسرحية" مراكز الإرساليات التبشيرية الأجنبية لأنهم – في نظره الكليل – حملة المشاعل للنهضة الأدبية العربية!!.. وهكذا من

الكلية الأمريكية ببيروت سنة 1860 ومن الكلية اليسوعية بعدها بقليل خرجت الشعلة الاستعمارية ومعها "الذهب الأفرنجي المسبوك" لتوجه الشباب العربي إلى فن القصة الغربية بجوار "نشر التعاليم الدينية طبقًا للمذاهب المسيحية الغربية" كما يقول الشيخ عمر الدسوقي!

من هنا.. ومع وضوح المسيرة الفاشلة وسط الشعب العربي، وجمهوره الذي تزداد يقظته يومًا بعد يوم، ويتخلص من أغلاله وقيوده قيدًا بعد قيد، ووهمًا بعد وهم – يتحدد ارتباط الدعاية والتنشيط للفن القصصي الأوروبي بالرواية أو المسرحية بصميم الخطط التي ينفذها الاستعمار لنشر ثقافته، ولتفكيك وتخريب مقومات الثقافة العربية المقابلة والمتميزة بجذورها وأصالتها عن هذه الثقافة، حتى ينفتح الطريق لذوبان وضياع الذات والهوية العربية في تبعية مطلقة لأوروبا غربًا أو شرقًا..

ولقد عاش العرب بعد بداية هذا الغزو قرنًا من الزمان رأوا فيه كيف كانت الصهيونية فيما أعدته من زراعة "إسرائيل" في قلب العرب وكأنها على ميعاد محدد داخل هذا المخطط الكبير لتجد بعد الغزو المسرحي والثقافي الأوروبي بكل ألوانه "فراغًا وضياعًا للذات العربية" تضع إسرائيل في "بحبوحته" أقدامها مطمئنة فوق أجساد شعب حطمته آلهة الغرب.. وخرافات معبد دلفي.. وصراخ وتأوهات القصاصين من المسلمين في هذيانهم الإتباعي وهم يكتبون: "يا إلهي.." أو "بحق الآلهة لم فعلت هذا يا سوسو!!"..

لقد كان في حساب الإرساليات التبشيرية الاستعمارية أن خططهم الثقافية تتجه داخل الوطن العربي إلى إعداد مناخ ثقافي أوروبي يتسع لتقبل "الغزاة الأوربيين الجدد في أثواب "إسرائيل" وتحت شعار صليب مبتكر في صورة "نجمة داود".. فلقد كان معلومًا لهذه الإرساليات، وقبل أن يفتح

العرب أعينهم على ما تدبره الصهيونية والاستعمار.. وقبل أن يأتي مارون نقاش بالذهب الأفرنجي المسبوك.. أن الخطط لزراعة إسرائيل في قلب الوطن العربي تسير حثيثًا تحت سطح السياسة الأوربية العالمية.. وهكذا يتحدد للباحث العربي اليوم مدى الارتباط الوثيق بين هذا الغزو الثقافي بالمسرح الأوروبي اليوناني، والمخطط المرسوم لملايين الكلمات الهاذية والخليعة والمنومة والمحطمة لمقومات الدين واللغة والتاريخ والأخلاق.. والتي ألقيت بالفعل من فوق هذا المسرح تحت شعار الفن.. أو الإصلاح الاجتماعي.. أو الترفيه عن جنود الاحتلال وكبار العمد.. وسماسرة المحاصيل – وبين إعداد الظروف الملائمة للعدو ليغتصب الأرض العربية، ويقيم عليها كيانها كدولة عدوانية توسعية أوربية صهيونية اسمها "إسرائيل"..!

وإذا كان أمل الأعداء لم يتحقق تمامًا بالصورة التي أرادوها، وإذا كانت الصحوات العربية المتتابعة لا تزال تمنع احتمالات الصور الزاهية للنصر الإسرائيلي الأول فإنه من المحقق أن الوجود الإسرائيلي بشكله القائم الآن على طريق صراع طويل – كان هو الصفقة الأولى من حساب "الذهب الأفرنجي المسبوك" والتي تمت خلال قرن واحد من الزمان بين ظهور أول مسرح هزلي في بيروت سنة 1847 وبين إعلان أعظم حدث مأساوي في تاريخ العرب الحديث وهو قيام دولة إسرائيل سنة 1948.. وهكذا بمفهوم هذه الصفقة يمكن تفسير الخط المتوازي بهذه المنامات المسرحية السقيمة، وأضغاث الأحلام في مثل مسرحيات "أهل الكهف" و "شهرزاد" و "بيجماليون" و "براكسا" – وبين نشاط الخطط الأوربية بالعدوان والتمر وتمزيق الكيان العربي من داخله بالخلافات،

والمتناقضات.. بعد تفريغه بأفيون القصة، وخمر المسرح.. من حقائقه، ولغته، ومن دينه، وأصالته!

السلام والصراع:

وعندما نمر في هذا الفصل على بعض آراء المستشرقين في قضية القصة عند العرب سنجد أن هذه الآراء التحريفية والمختلفه هي "السفر المقدس" الذي صدرت عنه آراء المريدين والعابدين والسالكين من أدباء العرب الذين يعتنقون في العصر الحديث ديانة القصة الأوروبية ومسرح اليونان. وسنجد أن الطابع العام لهذه الآراء هو النظرة العنصرية المتعالية التي لا يزال ينظر بها الرجل الأبيض الأوروبي – بلون الجليد ومزاجه – إلى شعوب الأرض التي يطمع دائمًا في افتراسها، وسرقة مواردها، وبخاصة شعوب الوطن العربي..

إننا لا نأبه لهذا الشعور العنصري عند الأوروبي الذي لا يرى الحقيقة إلا بعين واحدة في وسط رأسه، كما يراها إنسانه الخرافي "السيكلوب".. لا نأبه رغم تفاهات أساطير هوميروس، ومواكب الخمر والجنس، وثغاء الماعز، أن تكون هذه البربريات هي في شعوره ولا شعوره – مصدر التفوق، ومنبعًا للقيم الإنسانية التي يزعمها لحضارته العدوانية منذ بداياتها.. ولكننا نعترض، ونقاوم جميع هذه الدعايات والخطط التي تعدها القوى المختلفة لتبتلع ثقافة الأوربي ذي العين الواحدة ثقافة أخيه العربي ذي العينين الاثنتين المفتوحتين.. لتبتلع الثقافة التي لا تؤمن إلا بالأرض والأدوات والمتعة والحرب والعدم.. هذه الثقافة العربية الكاملة التي تؤمن بالأرض والسماء.. والإيمان والعلم.. والإنسان وأخيه.. والجهاد والسلام.. والحياة والبعث!

نعم.. بغير عنصرية.. ولا مباهاة.. ولكن دفاعًا عن النفس نحن نعترض، ونصحح، ونقاوم.. ونبذل الجهد لنبني حياتنا الأفضل.. حياتنا العربية المؤمنة.. وليست الحياة التي يريد أن يفرضها علينا الأوربي وراء طلائع فكر المستشرقين المجندين في فرقة الاستخبارات الاستعمارية الذين هم أعداؤنا القدماء من أيام الاسكندر.. وحتى هرقل.. ونابليون.. واللنبي.. وكرومر!

ونبدأ بأخف هذه الصور المقلوبة في فهم الموقف العربي من القصة الموضوعة ومن المسرح في كلام المستشرق الألماني جوستاف فون جرينبوم الذي يضع إصبعًا خبيرة على ما هو أقرب للواقع في تفسير العزوف والاستغناء في الأدب العربي الأول عن ممارسة الاستبطان الكهنوتي في صناعة الرواية الخيالية، والقصة المسرحية.. إن السبب ليس القصور أو العجز.. ولكنه السلام الاجتماعي الذي حققه الإسلام للعرب..

يقول جرينبوم "إن الإسلام كما خرج به العرب من جزيرتهم لم ينجح – كما يقول – في خلق فن مسرحي رغم معرفة المسلمين بالثقافة اليونانية والهندية، وهذا لا يعود إلى سبب تاريخي قدر ما يعود إلى مفهوم الإنسان في الإسلام، وهو مفهوم يمنع وقوع أي صراع درامي".

ولكن جرينبوم المتخصص في التنقيب عن العناصر الإغريقية المزعومة في الحضارة الإسلامية، وصاحب كتاب "الإسلام في إطار تاريخ الحضارة" يعود فيرى أن هذا السلام الذي يرسيه الإسلام في نفس المسلم تجاه نفسه، وتجاه الآخرين، وتجاه الحياة والوجود – والذي لمسه جرينبوم بأطراف أصابعه لمسًا – إنما هو سلام الإنسان فاقد الاختيار أمام الله.. سلام الإنسان المغلوب على أمره أمام خالقه الواحد المسيطر الذي آمن به.. وعلى هذا يصبح هذا السلام في نظر الخواجا جرينبوم عقبة وضعها

الإسلام أمام العرب تمنعهم من المزايا العظمى في وقوع الصراع الدرامي في أنفسهم.. إن هذا السلام الاجتماعي والفردي في نفوس المسلمين، والذي لم تنجح أوروبا وأمريكا من بعدها – حتى داخل عيادات الأطباء النفسيين – في الوصول إليه، وبعد تجربة الديمقراطية بأشكالها الرأسمالية أو الاشتراكية أكثر من ألفي سنة.. إن هذا السلام الإسلامي حرم المسلمين من أن يصبح المسلم العربي إنسانًا صراعيًا دراماتيكيًا.. يا للهول!!

أوليري الحقود:

ولكن مستشرقًا حقودًا معاصرًا هو ديلاس أوليري يتحدث في غرور مبشر استعماري يجلس بين أكواخ قبائل البوشمان ليكذب عليهم، وهو نشوان بجريمته، وبقدرته الموهومة على تمثيل "دوره".. المحدد له في مكاتب وزارة المستعمرات..

يقول الإنجليزي أوليري في بداية مزاعم التفوق اليوناني "إن الثقافة الإسلامية في أساسها وفي جوهرها جزء من المادة الهيلينية والرومانية، بل إنه حتى علم التوحيد الإسلامي قد تحدد وتطور بواسطة منابع هيلينية"!.. والخلط في هذا الإدعاء الهيليني يدركه المسلمون اليوم وهم يكتشفون أن هذا التسلل الهيليني الفلسفي إلى المدونات الإسلامية في عصور الانحلال كان أكبر محنة أصابت المسلمين بالشقاق الذي يراد لهم مثله اليوم، هذا الشقاق الذي دخلت به معتقدات وثنية، براهمية وبوذية ويهودية ويونانية في طقوس الفرق الصوفية والشيعية والباطنية والفلسفية، تحت مسميات إسلامية، لا صلة لها بالإسلام كما دعا إليه محمد رسول الله، وكما نزل به القرآن العربي المبين..

وعلى هذا فإنه من المقطوع به أن تنقية التراث الإسلامي من هذه "المادة الهيلينية والرومانية" بكل زيفها وخيالها وشتاتها وسفسطتها هي في صميمها – لو استطاع مثل أوليري أن يفهم – تنقية للإسلام مما ليس منه.. ومما هو باق في أسوأ دلالاته لنرده على أوليري – وارث الهيلينية والرومانية – على عنوانه إذا أراد!

ويتهم الإنجليزي أوليري الإنسان العربي في سلسلة من تناقضاته في كتابه الهابط والحاقد "العرب قبل محمد" بأنه "مادي" أي أن العربي يعشق الدرهم والدينار.. وهو الذي أعطى في جدبه ما لم يعطه ملوك أوروبا كلهم، بل أعطى أخاه، وأعطى الناس، وأعطى أوروبا نفسها، بإيمانه وعلمه وخلقه، وحضارته العلمية، وإنسانيته ما لم يعطه كل ملوك أوروبا، وقاطعي الطرق المتوجين في أكثر عصورها.. وما لم يعطها إياه جميع فلاسفتها التجريديين من أيام سقراط حتى ديوي.!

ويصف أوليري الإنسان العربي أيضًا بأنه "ضيق الخيال" لأنه لم يختلق أسطورة، ولم ينتظم في مواكب المخمورين الداعرين لتمجيد إله الخمر والكروم والخصب ديونيسيوس، ولم يرفع الدعائم الأولى لطقوس الوثنية على مسرح التمثيل، ولم يغير لغته الغنية بالشمس والصفو والحق بلغة تتمزق في أفواه أصحابها بأمراض الصرع والصراع.

ويتهم أوليري الإنسان العربي أيضًا – وهو ينسى أن شكسبير وجوته وأعظم شعراء أوروبا في عصر النهضة هم بعض أعشاب حديقته التعبيرية التي أثمرت ثمانية قرون في الأندلس، وغمرت أنغامها وعطورها صقلية ونابولي وباريس ومونبلييه ولندن وروستوك وكراكوف وغيرها – يتهمه أوليري بأنه جامد العواطف!.. نعم وينسى أن "الفروسية" والحب والنبل كانت بعض عطاء هذا الإنسان العربي للقلوب الأوربية الصخرية.. وكلمة

فروسية لا تزال في لغات أوروبا هي الكلمة العربية بنصها cavalry أي الخيالة..

ولكن أوليري – على سجية أسلافه – لا يلبث أن ينقلب على نفسه في تناقضات الدور الذي يؤديه ضد الواقع فهو ينسى سبابه بهذا التفضل على العربي حين يصفه بأنه "كريم" و "مخلص لتقاليد قبيلته"!

ومن هذه التناقضات العجيبة أيضًا ما تختلف به مقاييس وموازين أوليري حين يتحدث عن أبناء عمه الآريين من الفرس فيقلب قضية الديمقراطية رأسًا على عقب لأنها تجيء في صالح العرب، ويرحب بالوثنية وتأليه البشر والطغاة عندما يكون هذا هو مذهب الفرس. فلنسمع له في بعض خرافاته الهيلينية وهو يتعالم في كتابه التلفيقي "الفكر العربي" فيقول وهو يحكي عن رؤيته للتاريخ الإسلامي بعين السيكلوب الواحدة في قاع رأسه: "إن حكم الساسانيين الفرس لم ينته بالحكم الإسلامي فحسب، وإنما انقرضت الأسرة الساسانية نفسها. وقد بقي الكثيرون من الفرس على أفكارهم القديمة برغم اعتناقهم الإسلام؛ فكانوا على استعداد لعبادة "الخليفة" كما عبدوا ملوكهم من قبل، بينما لم يرحبوا بنظرية الخلافة كما جاءت بها تطبيقات العرب، والتي لم تجعل من الخليفة أكثر من شيخ قبيلة منتخب بطريقة "ديمقراطية" على نحو ما كان في قبائل الصحراء، وقد بدا ذلك في نظر الفرس كأنه رجوع إلى البربرية البدائية"!

وهكذا يكون التطور الحضاري المطلوب في نظر الأوربيين بالنسبة للعرب تطورًا عكسيًا مثل الانقلاب العكسي في سير الدراما.. فالديمقراطية التي يمارسها العربي.. الحر.. الكريم.. بربرية بدائية.. والوثنية التي يتأله بها الحكام الطغاة من الفرس وهم يستعبدون رعاياهم

هي تقدمية حضارية.. وعلى هذا فلقد كان من الصعب جدًا على عقل أوليري وأمثاله أن يفهم أن هذا الإنسان العربي الديمقراطي الحر.. الكريم.. الذي تجاوز في واقعه الذي عاشه بالصدق كل الخيال – لا يمكن أن يكون "ضيق الخيال".. ولا يمكن بالتأكيد وقد انتصر بالصدق فحقق الحرية لإرادته، والسلام مع نفسه، والسواسية والتكافل مع الآخرين – أن يفتعل كابوس "الصراع الدرامي" الذي تطهر فكره منه، وارتفع تعبيره عن مستواه، بعيدًا تمامًا عن خشبة الفن المسرحي الوثني.. وعالمه الشبحي..!

معايير الإنسانية:

وفي هذه القضية – مثل جميع القضايا المتصلة بالعرب والإسلام – لا يتناقض مستشرق مع نفسه فحسب، وإنما يتناقض المستشرقون مع أنفسهم ما بين عصر وعصر، وما بين أنفسهم في العصر الواحد، وإن أجمعوا بصورة أو بأخرى على هدفهم المحدد وهو الاستخفاف أو الزراية أو الاختلاق، أو سوء الفهم، في كل ما يتعلق بالعرب والإسلام..

فمن هذا ما يزعمه المستشرق كارل هنريخ بيكر الذي كان أستاذًا بجامعة هامبورج وأنشأ مجلة بالألمانية سماها "الإسلام" وتخصص في نفث أكاذيبه حول وجود عناصر يونانية ومسيحية في الحضارة الإسلامية، فهو يقول "إن النزعة الإنسانية التي تولدت من التراث اليوناني في أوروبا لم يؤد الإسلام إلى مثلها بين المسلمين، وقد نشأ عن ذلك أن العالم الإسلامي لم يأخذ من التراث اليوناني إلا ما كان ذا نزعة عقلية منطقية، أما الشعر الغنائي والأدب الروائي حيث تتمثل الروح اليونانية فقد ظل أمرهما مغلقًا على المسلمين"!.

فهذا المستشرق الذي زار مصر وكان شبه مستشار للإنجليز بوزارة المعارف سنة 1916 يناقض أوليري الذي يزعم أن الثقافة الإسلامية كلها هيلينية رومانية، ويناقض نفسه وهو مؤلف كتاب "النصرانية والإسلام" في أن الإسلام لم يؤد إلى النزعة الإسلامية بين المسلمين بينما هو يزعم وقوع التبادل الفكري بين الإسلام والنصرانية، فعلى أي أساس كان هذا التبادل إذا افترضنا إنسانية النصرانية – إذا لم يكن الإسلام يملك الإنسانية مصدرًا كما يملك القابلية لها تبادلًا!؟

وكيف ينتزع بيكر الإنسانية من الإسلام وهو مصدرها الذي لا ينضب في طبيعة دعوته، وفي آثار هذه الدعوة التي حررت في سنواتها الأولى نصارى مصر المضطهدين من المذابح البربرية التي أدار الرومان دولابها الدموي على أجسادهم نحو ستة قرون بغير انقطاع.. ومن هم الرومان؟ إنهم تلامذة اليونان، وأتباع "إنسانيتهم" المزعومة الملطخة بالدم، والخمر والابتزاز، والخداع، كما عاش الإسكندر وبطالسته يتيهون على الناس وهم يظلمون ويفجرون؟!

ولا نحدث بيكر عن إنسانية المسلمين في أوروبا، وآثار إنسانيتهم إلى اليوم في كل جامعاتها.. كما لا نحدثه عن اللاإنسانية التي حملت بها أوروبا عارها الأبدي في محاكم التفتيش، وهي تنتزع روح المسيحية لتحل محلها روح الوحش اليوناني والروماني، السائد إلى اليوم في صراع الدول الأوربية شرقًا وغربًا.. على استعباد العالم..

ولكن الفيلسوف والمؤرخ الفرنسي يوسف ارنست رينان يتخذ في قضية الإنسانية أسلوبًا أكثر غرورًا وتحديًا من الألماني بيكر فهو يرى لإرضاء نزعة التفوق العنصري في خياله الحاد أن الجنس الآري هو الجنس المتفوق، وأن الساميين – بحسب التسمية اليهودية – ومنهم العرب هم أقل

في مستوى الخصائص الدافعة إلى التقدم. ثم يعكس رينان الواقع بالنسبة للإنسان العربي فيدعي أنه غيبي بمفهوم خرافي، ومتعلق بالمعجزات بمفهوم أنه يؤمن بالمشاهد التي يكون معناها كسر القوانين العلمية.. وهذا بالطبع وهم كبير، واختلاق يردده من ربطوا مفهوم الإنسانية والتقدم بنشاط غرائز التسلط والعدوان..

والواقع أن هذه الصورة التي تعكسها الأوضاع في الشرق، أي في الأوطان العربية التي تأثرت بعد الإسلام بخرافات وأساطير فارس والهند في معتقداتها وغيبياتها ليست صحيحة بالنسبة للإنسان العربي الأول، والإنسان العربي إلى اليوم، كلما انتبه إلى حقائق الإسلام المنسقة والعلمية في القرآن الكريم، وفي التاريخ التطبيقي للإسلام في عصر المسلمين الأوائل.

فالإنسان العربي المؤمن مؤمن بالغيب الذي جاء به القرآن، وهو غيب يؤكده علم الإيمان، ومنهج التفكر السليم في حركة الحياة التي تنبئ عن خالقها، وتتنزه عن العشوائية في مسيرتها ومداراتها.. فالغيب الذي هو حقائق الإيمان بالله والملائكة والوحي والبعث والحساب هو غيب علمي يرتكز على معلوم يؤدي إليه.. وليس هو غيب من نوع حلول الآلهة في البشر كما كان الفرس يتصورون حلول آلهتهم في أجساد ملوكهم..!

وأما "المعجزات" والكلمة الصحيحة هي "الآيات" فقد آمن العرب المسلمون، ولا يزالون يؤمنون بأنها تمت بجميع صورها وفق السنن والقوانين العلمية التي هي صنع ومشيئة الله، فكيف يكسر الله بآياته سننه..؟.. المسألة التي لا يفهمها رينان وأمثاله أن المؤمن يؤمن بوقوع الآيات على أساس علمي وإن كان تفسيرها العلمي فوق طاقته.. كما يقع كل يوم في

الطبيعة، وفي حياة الإنسان عدد كبير من الظواهر التي يصعب تفسيرها العلمي وإن كان من الحتم أن لها هذا التفسير..

ولكن رينان صاحب موسوعة التاريخ المسيحي، وبسبب تعصبه الاستعماري الأوروبي ضد العرب، وبسبب عبقريته الآرية اليونانية أيضًا كان لابد له أن يكون متناقضًا مع نفسه.. ولم لا.. فالذين يمكن أن يحاسبوه عن جرائمه العقلية ضد العرب هم بسبب "ساميتهم" أقل منه استيعابًا لما يقول، وأعجز عن تطويق أكاذيبه، وأقصر يدًا ومنطقًا عن محاسبته المذلة لغروره.. وفي مجال هذا التناقض الذي يتنافس فيه فكر السادة الآريين نترحم على روح العالم رينان بتقديم فقرة من كلماته التي يصف بها اللغة العربية عند انبثاقها بالإسلام حاملة باتجاه تغيير وتحرير وتدين وعلمنة العالم القديم: سور القرآن الكريم.. نقدم كلمات تضعه باعترافه أمام ظاهرة علمية لا تفسير لها عنده، وإن كان لها تفسير علمي على التحقيق، كما وجد المؤمنون العرب أنفسهم بالإيمان أمام جميع الآيات التي قدمها الله.. والتي لا يزال يقدمها في الخلق والحياة والإنسان – كل يوم.. ولكن أكثر هؤلاء المستشرقين لا يعقلون..

هذه الكلمات التي ترفع من قدر رينان العلمي في صدق ملاحظته هي نفسها التي تدينه، وتهبط بمستوى أمانته إلى الحضيض عندما يتكلم بغرور وبغباء معًا عن المستوى الأدنى للساميين عن الآريين، في حين أنه ثابت قديمًا، وثبت حديثًا، أن فارق عقل أمة عن أمة هو اللغة.. فكيف يمكن أن تقاس اللغات الهندوأوربية الخرسانية شبه البكماء في الشئون الإنسانية باللغة العربية التي معناها اللغة المبينة، والتي تحقق بها تغيير العالم أكثر من مرة، وفي أعظم مرة، مع استمرار بقائها بنفس النضارة الحيوية، ومع جمال وجلال الإيقاع، ومع الغنى المتجدد بالمعاني الأكثر أصالة في مطالب

البشر، بغير غضون أو تجاعيد أو شيخوخة.. بينما سقطت ودفنت اليونانية والرومانية القديمتان مثخنتان بالعجز والتصلب والضمور بعد أقصر الجولات في حياة ميتة إنسانيًا.. ومصير ما تولد منهما من اللهجات رهين بما تبقى من عمر هذه الحضارة الحديثة التي تعاني أعراض الانهيار.

يقول رينان وهو يتحدث عن بداية مشاركة سكان الجزيرة العربية في النشاط العالمي المحيط بهم منذ ظهور الإسلام – بحسب رؤيته – كما يتحدث أيضًا عن "مزايا" الجنس السامي!.. يقول:

"إن وسط شبه الجزيرة العربية وهو موطن العرب الأصلي لم يظهر في تاريخ الشرق القديم إلا متأخرًا ومع ذلك فإنه هنالك بالتحديد تستمر بفضل الحياة البدوية الميزات الأصلية للجنس السامي – العربي – ففي القرن السادس بعد الميلاد يتراءى هناك عالم زاخر بالحياة وبالشعر، و "بالرقي" في بلاد لم تعط حتى هذا التاريخ أية علامة على وجودها".

ويمضي رينان بعد ذلك فيتحدث عن اللغة العربية نفسها، التي هي خزانة معاني وحقائق وخصائص وتراث العرب، فيبدي عن بالغ دهشته وهو يقف أمامها كما يقف العالم أمام ظاهرة تبهره، وتثيره، ومع ذلك تبقى أعلى من علمه، وابعد عن منال منطقه وأدواته.. إنه يقول في كلام قرأه المستشرقون فلم يفهموه، أو تجاهلوه.. إنه يقول في كلمات ينبغي أن نعيد نحن العرب النظر إليها، ونعلم أنه برغم كل الهجمات في حرب الغزو الفكري فإن بقاء العرب، وبقاء الحق الذي يمثلونه، والسلام الكبير الذي يدافعون عنه – رهين بدفاعهم عن لغتهم الصحيحة، وبقدرتهم على أن ينبعثوا من جديد من أعماق كلماتها الحية والغنية، والمشرقة على الدوام فوق سحب العدوان، وسحائب النسيان، في محكم القرآن المبين..

إن يوسف ارنست رينان يمضي فيقول في كتابه عن اللغات السامية: "ومن الظواهر التي اقترن بها هذا الانبثاق غير المنتظر لوعي جديد في الجنس البشري – يعني ظهور الإسلام – ربما كانت اللغة العربية نفسها هي الظاهرة الأشد غرابة، والأكثر استعصاء على الشرح والتعليل. فهذه اللغة المجهولة ما قبل التاريخ تبدو لنا فجأة بكل كمالها ومرونتها وثروتها التي لا تنتهي، لقد كانت من الكمال منذ بدايتها بدرجة تدفعنا إلى القول بإيجاز أنها منذ ذلك الوقت حتى العصر الحديث لم تتعرض لأي تعديل ذي بال. اللغة العربية لا طفولة لها، وليس لها شيخوخة أيضًا، منذ ظهرت على الملأ، ومنذ انتصاراتها التي لا مثيل لها".

ألا يكفي هذا الكلام للدلالة، أو للإشارة إلى أن دعوة الإسلام لم تكن لتظهر، إن كانت هي الدعوة الصحيحة بين الأديان والدعوات، إلا من خلال تعبير وبيان اللغة الأكثر حيوية ومرونة وثروة وكمالًا بين لغات العالم، ومن أجل هذا اتسعت لمعاني وكلمات الوحي بالقرآن الخالد بغير تحريف إلى اليوم..؟!

وأما كان مثل هذا الكلام الواضح تمامًا يكفي جوقة المنشدين من الكتبة والمتأدبين بالوطن العربي، على أرغن مارون نقاش وصنوع، ومبشري الإرساليات الأجنبية – لكي يدركوا أنه لكي يكون مسرح عربي، ودراما واختلاق، وخمر وزمر، وآلهة وأوليمب، فإنه ينبغي – كما هو في المخطط الصهيوني الاستعماري – إزالة هذه اللغة العربية.. أما إذا كان هدفهم هو الهدف الوطني والقومي أي هو إنجاز التقدم الحقيقي للعرب، فوق أرضهم، وبمقوماتهم وعقيدتهم ولغتهم وقرآنهم.. فإن المسرح يكون أكذوبة.. ومعبدًا خرافيًا لم ينشأ في أوروبا منذ اليونان إلا في ظل الأثرياء والسلطة.. وأنه ظل هكذا لعبة وملهاة للقصور حتى الثورة

الفرنسية.. وأن محاولات تسخير أكاذيب الدراما، واستبطاناتها الصراعية الخداعية لخدمة القضايا الاجتماعية قد ثبت فشلها تمامًا. فالمسرح لابد له من رعاية، والراعي دائمًا هو الملوك والنبلاء والسلطة.. وقد صمت المسرح الأوروبي الذي تحول الآن إلى بيات شتوي لأكثر الخرافات بسبب صحوة الشعوب، وانتشار العلم، وسيطرة سياسة المواجهة في المشكلات العالمية، وليس الخداع والمناورات.. والصراع الدرامي!

ولكنه كان مقدورًا لهذه الجوقة أن تنشد في الظلام قبل أن ينقشع أنشودة جنادب الحقل، ولم يكن في وسعهم – كما نشأوا في حصار الثقافة الاستعمارية الأوربية – أن ينظروا في كلام المستشرقين بالعين المبصرة فيناقشوا ما فيه من خلط وتناقض وتحامل ويفندوه.. وهكذا حملوا أوزاره على ظهورهم.. وتنادوا به سفهًا في كتبهم ودعاياتهم..

المكتوب والمقدور:

ومن بين هذا الخلط أيضًا في مزاعم المستشرقين حول قصور الخيال العربي في مجال "الاختلاق الدرامي" واعتبار ذلك منقصة وبدائية – ما جاء على لسان المستشرق الفرنسي هنري كوربان من السوربون والذي اشتغل مديرًا للمعهد الفرنسي للدراسات الإيرانية في طهران، فهو من أجل الدراما يعتبر مسيرة الفكر التاريخي الإسلامي المنتظم في هذا الكون بلا حد، ومع الزمن بلا نهاية، بين حركتين متعادلتين هما "المبدأ والمعاد" – نوعًا من التفكير الذي يلغي تصور التطور في هذا العالم. فكل شيء يحدث إنما هو "مكتوب" بالنسبة للسير العمودي لأحداث الوجود، وأما بالنسبة للسير الأفقي في أحداث المعاش اليومية فهي أمور ثانوية عند العربي المسلم.. وهو يزعم لذلك أن هذا النبض المنتظم في الفكر التاريخي الإسلامي في

مدارات تتعاقب بين المبدأ والمعاد لا يخلق إلا "الأسطورة" ولا يمكنه أن يخلق الدراما!

أما أنه يخلق الأسطورة فلا.. لأن الأسطورة هي المنجم الذي خرجت منه عناصر الدراما، فإذا كان الإسلام لا يختلق الدراما فلأنه أساسًا لا يصنع الأسطورة..

وأما عن "المكتوب" وحكم الله وقدره فنظرة المسلمين والعرب إليه لا تخرج عن مقاييس ومعاني القرآن، فالمكتوب هو حكم الله القائم على "الحكمة" في سبب الخلق، وعلى العدل في إقامته وتسييره، وعلى التطور في معنى الخلق نفسه إلى الأحسن بمفهوم أوسع من الإدراك الأوروبي الضيق للوجود.. أي بمفهوم أوسع للمكان والزمان.. فعند المعاد.. وبعد تغير وتطور جميع الصور المادية الراهنة للسماوات والأرض.. يظهر إنسان خالد.. إنسان جديد لا يرهقه الصراع.. ولا يتملكه الوهم والخوف.. ولا تقصر به أدوات العلم والحكمة.. وفي كل هذه المعاني القرآنية لا يوجد أثر للخرافة أو الأسطورة.. وإنما هو موقف علمي من العالم بقدر ما يتسع له إدراك الإنسان المتحرك والعابر – كما يتحرك كل شيء حوله – بين المبدأ والمعاد.. إلى ما هو أفضل للمؤمن.. الذي ثبت باختيار إيمانه وعمله أنه بمفهوم إنساني أشمل لقانون "الانتخاب الطبيعي" قابل لاستئناف حياته "متطورًا" إلى الإنسان الكامل.. بعد عبور حالة الموت.. واستقبال حقيقة البعث.. وطور الحساب!

فإذا كان مثل هذا الإيمان.. وعبر هذه المدارات الأبعد والأشمل "عموديًا" و"أفقيًا" لا يستطيع العربي أن "يختلق" الدراما.. فهذا حق لا يمارى فيه.. ولكنه حق في جانب الكمال وليس في جانب النقص.. وفي جانب إنسانية أرفع نظامًا، وأغنى تعبيرًا، وليس في جانب بدائية أو تخلفية هي كما كانت ولا تزال ورغم كل الظواهر الخادعة في المجتمعات الأوربية

القديمة والحديثة طبيعة هذه المجتمعات، في فكرها التاريخي والتفسيري الضيق للحياة والإنسان.. إنه كمال في جانب هذه الحضارة العربية الإسلامية التي وعت التطور العمودي والأفقي في الاتجاه الصحيح الذي انتهت به في أزهى عصور التاريخ إلى تصحيح مسار التطور الإنساني باتجاه العلم.. وليس باتجاه الخرافة!

ثم يأتي ماسينيون في مجال هذا الكلام عن إيمان المسلمين بقدر الله إيمانًا يحرمهم الإرادة الحرة فيقول: "إنه ليست هناك دراما في الإسلام، لأن الدراما كما يعرفها التفكير الأوروبي الشائع تدور في قلب الإنسان. إنها دراما حريتهم – أي حريتهم في الاختيار – ولكن هذه الحرية بالنسبة للمسلمين مشروطة بالإرادة الإلهية التي لا تعتبرهم إلا أدوات فحسب.."!

وهذا الفهم المقلوب أيضًا لمعنى المشيئة الإلهية في إيمان المسلم هو انعكاس للوضع الذي يحس به الملحد الأوروبي العقلاني تجاه "الحقيقة الإلهية" وعجزه رغم الأناجيل الأربعة عن أن يجد لها شعاعًا من ضوء في أغوار نفسه المتصارعة على أشباح شهواتها، وعقدها، ومطامعها، ومخاوفها، وظنونها!.

إن ماسينيون الذي لا يزال يرى الآلهة بمستوى خرافات هوميروس، ولعب وتماثيل معبد دلفي، وجزيرة ديلوس.. وجوبيتر وزيوس.. لا يستطيع أن يعي إمكان سبر "الاختيار البشري" في مدار المشيئة الإلهية، ثم يبقى مع ذلك اختيارًا حرًا كاملًا، طالما أن الإنسان المؤمن لا يعلم من غيب المشيئة الإلهية بالنسبة لأعماله إلا بعد وقوع هذه الأعمال.. فكل ما وقع هو مشيئة الله، وكل ما سيقع هو مشيئته أيضًا، ولكن المؤمن يختاره بكامل حريته قبل وقوعه.. يختاره ليجتاز امتحان التعبير والبيان عن ذاته وطبيعته كما أرادها الله له.. وهو يختار ما هو بقواعد الأخلاق والعدل، وبقوانين

العلم والسنن، من فطرة الإنسان السوية في كل مكان في الأرض.. فماذا يضير المؤمن أن يكون مختارًا لما هو اختيار الله، وأنه دفع ثمن هذا الاختيار بأنه رفض الشر وقاومه، وأقبل على الخير وحمل أمانته..!؟

ثم ما هو امتياز هذا الإنسان المتجرد بإرادته في وجه عالم مغلق في وجهه، عالم لا تنتظمه إرادة خالق.. مدبر وحكيم وعادل.. وليس في قدرة هذا الإنسان "الملحد" من باب الجهل والعجز، والقهر والفصام، والذي يريد أن يرى الله واقفًا متجسدًا أمامه حتى يؤمن به.. ليس في قدرة هذا العاجز، الدعي، أن ينظم بإرادته "الممزقة" هذا الكون الدائر فيه، ومن حوله، وعلى امتداد بعيد وراء حواسه وعقله.. لا يدركه!

ما هو فضل هذا الإنسان المقهور بشعوره وعقله بانغلاق الكون أمام بصره في أن تكون له الإرادة الفريدة في هذا الكون.. ليصارع جهله، وشهواته، وإرادات الآخرين التي تسوقه أو تطحنه، في غيبة إيمانه – جهلًا لا علمًا – بإرادة الله التي ينتظم بها كون منتظم.. إرادته التي تحميه من الجهل، وتدفعه إلى مزيد من العلم، وتملأه بما هو في أشد الحاجة إليه من السلام.. وحب السلام.. والعمل بين الناس لسيادة هذا السلام!

هل هذا الأوروبي بإرادته التي يزعم أنها لا تؤمن بإرادة إله حق، قادر وعادل، ومسيطر – أصبح يصنع الدراما.. بينما العربي المسلم لا يستطيعها؟ فليتدرم كما شاء هو وقبيله.. حتى يصحو.. ويصحو جميع الغافلين معه على هوان إرادتهم.. وخيبة صراعهم!!

وربما كان أنسب ما نقدمه على عجز هذه الإرادة الأوربية اليونانية الدرامية التي لم يملكوا بها الضوابط الإنسانية أمام موبقات الخمر والجنس والابتزاز والعدوان فقرة من كلمات أحد العنصريين الأوربيين حول أهم شروط الفن الدرامي في نظره.. كلمات قليلة يتجلى فيها على

لسان الفيلسوف المجنون "نيتشه" لون من ألوان إرادة الجنون في إرادة سكران لا إله له.. إلا سكره وجنونه.. وإرادته!

يقول نيتشه وهو يفترض في الدراما أن تحارب "العدم" الساكن في أعماق الإنسان.. الأوروبي بالطبع.. ومع الإحساس بالعدم يكون الإحساس بالرعب.. وهذا أول انبثاق الصراع.. يقول نيتشه: "إن الاستحواذ هو الشرط الأساسي لكل فن درامي، والثمل الديونيسوسي – أي النابع من طاعة إله الخصب ديونيسيوس إلى حد الثمالة – يزهر كريح الربيع بقوة لا تقاوم، كالعاصفة، أو كجنون تختلط فيه عواطف شتى، هذا الدفع الربيعي هو تغير نشوان يعبر عن عرض الإرادة".. هل فهمتم شيئًا!؟

ومرحبًا.. فهذه هي حرية إرادة الأوروبي في طاعة السكر الوثني بالاه خرافي.. إلى حد الجنون.. وهنيئًا لأوروبا وحدها هذا الثمل "الدرامي".. الجنوني.. إلى الأبد.. وإلى ما شاء الله.

مستشرق عربي:

وحتى لا يفوتنا تقديم صورة لآراء رجل تم استهواؤه تمامًا بثقافة الغرب مع سابق انتمائه للعرب فتجنس بجنسية أجنبية، واحترف حرفة الاستشراق بعد أن تغرب عن قومه وأصبح مستعربًا وقد كان من قبل عربيًا – نذكر كلامًا عن العرب من كتاب "فيليب حتى" تاريخ العرب.. و"حتى".. هو المستعرب اللبناني الأصل، والأمريكي الجنسية، وأستاذ اللغات الشرقية ببعض الجامعات الأمريكية. ففي كلمات "حتى" يمكن أن نراقب في الحديث عن العرب ظاهرة الدوامة التي تكثر عند مصاب الأنهار، حيث تدور موجات الماء العذب في حلقات تبتلعها في النهاية، وبغير مقابل، أمواج البحر الأجاج..!

ففي مقابل الفن الروائي والمسرحي الأوروبي يشير فيليب حتى من بقايا ذاكرته العربية إلى ما كان، ولا يزال يملكه العرب، في مصر والشام والعراق والجزيرة العربية وبقية الوطن العربي، من فن الكلام المباشر بأنواعه في الأدب العربي، بلغته الإيقاعية الفصحى، ذات التأثير البالغ عليهم فوق تأثير أية خشبة مسرحية، وهو تأثير باللغة المنطوقة والمكتوبة يفوق تأثر أية أمة في الأرض بلغتها في هذا المجال فهو يقول:

"والعرب يفوقون شعوب الأرض بأجمعهم باستحسانهم التعبير اللفظي والكتابي، وإعجابهم به، وما في الكلم بأنواعه من إثارة لنفوسهم، وقد لا تكون هناك لغة تضاهي العربية في تأثيرها في نفوس متكلميها. ففي مجالس بغداد ودمشق والقاهرة يحس السامعون إلى اليوم بانفعالات داخلية شديدة عندما يصغون على قصيدة أو خطبة بالعربية الفصحى، وإن لم يستوعبوا الكثير من معناها، فالوزن والقافية والموسيقى تولد في النفس شعورًا، وتسحرها بما يسمونه السحر الحلال".

ثم يقول: "والعرب كسائر الساميين لم يستنبطوا فنًا جميلًا خاصًا بهم، بل أطلقوا لطبيعتهم الفنية العنان في مجرى واحد، هو فن الكلام. فإذا مجد اليوناني تماثيله وبنيانه مجد العربي قصيدته، والعبراني مزموره، ووجدا فيهما طريقة أسمى للتعبير النفسي. وفي أمثال العرب "جمال المرأة في فصاحة لسانه" وقد عد عرب الجاهلية كمال الرجل في مزايا ثلاث هي: "الفصاحة والرماية والفروسية".

ويضيف "فيليب حتى" في وصفه للعربي أنه ديمقراطي بالطبع. لقد كان بالتأكيد كذلك قبل أن تولد فلول القبائل الهندية الأولى من أسلاف اليونان على طريق هجرتها إلى أوروبا عند بحر قزوين. وكانت ديمقراطية العربي "واقعًا" حيًا، ولم تكن جدلًا حول الديمقراطية في حكومات

الطغاة من ملوك اليونان وأثريائهم. وإذا كان "فيليب حتى" في مغرب عروبته لم يستطع أن يرى الصلة بين كمال اللغة، وكمال التعبير بها، وبين واقع المساواة والسواسية أو الديمقراطية بغير مفهومها الدرامي الأوروبي – فإن القارئ العربي يستطيع أن يتبين هذه الصلة الوثيقة التي أغنت العرب كلما تحققت لهم – عن ثغاء الماعز على المسرح من أجل مساواة لم تتحقق لليونان إلا في صور الصراخ الثمل حول تمثال ديونيسيوس، وفي عب الخمر، وابتذال المرأة.. بينما بقيت "الديمقراطية" بينهم، وكما زعموها، حلمًا في أسطورة، وثمالة في صحوة، وواقعًا للطغيان وضعوا على وجهه قناع أبناء هيلين..!.. يقول فيليب حتى:

"إن العربي إجمالًا والبدوي خاصة ديمقراطي بالطبع والنزعة. فهو يحسب نفسه مساويًا لشيخ القبيلة. وهو ينظر للأمور بعين المساواة. وكان حتى قيام ابن سعود قلما يستعمل كلمة "ملك" إلا إذا أشار إلى الملوك الأجانب".

ثم يقول وهو يشرح أن العربي قد فرغ من قياس نفسه ونوع حياته إلى الآخرين بعد أن امتحن حياتهم ورضي بحياته "غير أن العربي من ناحية أخرى يرى نفسه مثالًا أعلى بين البشر، ويرى الأمة العربية أشرف خلق الله، وعنده أن الرجل المتمدن دونه قدرًا وسعادة، وهو يفاخر بصفاء دمه، وفصاحته، وشعره، وسيفه، وحصانه، وغاية فخره هم أجداده"..

ثم يقول وهو يشير إلى كرامة المرأة العربية في مقابل الهوان الذي كانت تلقاه المرأة اليونانية – في ظل الحضارة المسرحية – ولا تزال تلقاه إلى اليوم.

"أما المرأة البدوية، سواء بعد الإسلام أو في الجاهلية، فقد كان لها نصيب وافر من الحرية تحسدها عليه أختها المتحضرة، فهي حرة في اختيار

زوجها، وفي فراقه إن أساء إليها، كما أن لها فوق ذلك حق التملك الشخصي".

ولكن ماء البحر الأجاج لا يلبث أن يطغى على عقل وإرادة "فيليب حتى" فيكرر خطيئة الظن بأن العرب حين حرروا الوطن العربي في مصر والشام والعراق من أغلال القهر الرومي والفارسي جاؤوا إلى أرضهم هذه التي كانوا يجوسون خلالها للتجارة وللرعي قبل الإسلام فارغين تمامًا من الثقافة والنظر العلمي والتراث.. إنه يستمتع بنفس لعبة رفاقه المستشرقين عندما يؤذي ذكر الحقيقة مصالح أوروبا، التي لا يمكن لها أن تنسى هزيمة الروم الساحقة بعد استقرار ظالم، وعابث، على أرض العرب قرابة ألف سنة.. يقول فيليب حتى منشدًا نفس المزمور:

"لاحظنا أن الغزاة – ولا يقول المحررين – من عرب الصحراء دخلوا الأمصار – ولا يقول العربية – التي فتحوها – ولا يقول – حرروها – خالي الوفاض من كل تقليد علمي أو تراث ثقافي. ولقد حال قرب عهد الأمويين في عصر الجاهلية وحروبهم الكثيرة، وعدم استقرار الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في العالم الإسلامي دون التقدم الفكري في بدء عهدهم. غير أن بذور الفكر الناشئ عن الثقافات السابقة من يونانية وسريانية وفارسية كانت قد زرعت في تربة العهد الأموي. فما جاءت الدولة العباسية حتى نمت هذه البذور لتصبح أشجارًا باسقة ذات أثمار يانعة، فالعصر الأموي كان على الجملة عصر استعداد وحضانة"!

بهذه الأكاذيب يتقرب "فيليب حتى" إلى أهداف سادته ومواطنيه الجدد، وهو يزعم أن هذه الطفيليات الوثنية من أفكار ومعتقدات الفرس واليونان، والتي ظلت مختمرة بعد مرحلة التحرير والتغيير والتأمين التي جاء بها الحكم العربي الإسلامي في العصر الأول للإسلام، ثم في العصر

الأموي. قد حملت بعد يقظتها في ظل المؤامرات الفارسية، ونشاط الردة الوثنية إلى المعتقدات الأولى، ومع نشاط مواز له في قراءة فلسفية جديدة للقرآن بالعقل اليوناني – ما يسميه فيليب حتى "أثمارًا يانعة".. وهو يعني بالضبط ثمار "الزندقة" في أعمال وآراء البابكية الخرمية، والقرامطة، والإسماعيلية الباطنية التي هاجمت العرب والإسلام. كما يعني أيضًا ما اعترى الأمة العربية الإسلامية من حمى الخلافات التي مزقتها بهذا الصراع المذهبي الذي نشب بين العرب المعتصمين بالفهم القرآني والسني للإسلام، وبين المرتدين إلى الفكر اليوناني والفارسي في مثل مذاهب القدرية التي قال بها معبد الجهني وغيلان الدمشقي عن سيبويه الفارسي، أو الجبرية التي قال بها الجهم بن درهم عن اليهودي أبان واليهودي ابن أعصم، وكما يعني سفاهات المعتزلة في القول بخلق القرآن، والتفلسف في الجبر والاختيار، وبالتأكيد هو يعني أيضًا باطنيات ودسائس "إخوان الصفا" في مثل كتب الفارابي وابن سينا الخاضعين تمامًا لنظرية غزو الفكر الإسلامي السني بالفكر الفلسفي اليوناني..

على أنه سواء أكان "حتى" يعلم أو لا يعلم أن الانفتاح على الثقافات الوثنية الطبقية الأسطورية بعد ردتها إلى أرض الأمصار هي التي أصابت الحضارة العربية الإسلامية في صميم عناصرها النقية بها من الجزيرة العربية، وهي التي عرضت منهجها العلمي والأخلاقي والإنساني لمحنة الترف والانقسام الطبقي للجماهير التي تساوت بالإسلام، وإلى تجارة الحظ والموبقات، وكلها سلع قديمة وتراث متجدد في حضارة الفرس والروم.. فإن الحقائق التاريخية الملموسة تؤكد أن ما أخذه العرب من الفرس من الترف والمتع الشاذة، وما أخذوه من الروم من الفلسفات السفسطائية، ومن الجدل التجريدي في الظنيات، والافتراضات، كانا

معاول الهدم السريع في أساس المجتمع العربي الإسلامي النمطي.. وأن آخر نقطة لقاء بين العرب المسلمين وبين مقوماتهم العربية الأصلية والنقية التي خرجوا بها تحت رايات القرآن كانت لحظة احتضارهم وهم يستمعون إلى ما قدمه لهم الفرس من كتاب "ألف ليلة وليلة" معربًا.. لقد حمل العرب بهذا الكتاب خلاصة إثم حياة الشرق، وانتسبوا إلى "الشرقيين" في لغة أوروبا المتداولة، أي إلى قتلتهم حضاريًا من "الفرس" وأشباههم من الشعوب القزوينية.. وأصبحت هذه الليالي "الساسانية" والفارسية الأصل هي جذوة النار المجوسية التي دفع بها الفرس حياة العرب في سكرة المؤامرات والفلسفات التي أذهلتهم بعيدًا عن دينهم ولغتهم وقرآنهم ومعروفهم وطهرهم.. وفي هذا المصير يقول "حتى" دون أن ينسب الانحلال العربي إلى بذوره السامة في معتقدات وأنماط حياة الفرس، وألوان ثقافاتهم الاستمتاعية:

"وأما أدب اللغة العربية فقد بلغ أوجه حوالي العام الألف للميلاد، وإذ قد تأثر بالأدب الفارسي مال إلى التعمق والتأنق، وهكذا زال الإيجاز، والاقتصاد اللفظي، وبساطة العبارة التي اتصف بها أدب العصور الأولى.. ومن آداب هذه الحقبة انتقى الغرب كتابًا واحدًا أولاه اهتمامه هو كتاب "ألف ليلة وليلة" وأصله قصص فارسية قديمة نقلها إلى العربية الجهشياري المتوفى سنة 942. إلا أن القصاصين المتعاقبين أضافوا إليه قصصًا أخرى كثيرة.. وعلى تعاقب العصور ألحقت بهذه المجموعة حكايات جديدة من مصادر هندية ويونانية وعبرانية.. وتطرق إليها أيضًا نوادر وفكاهات وغراميات من بلاط هارون الرشيد.. وفي هذا الوقت الذي وضع فيه كتاب "ألف ليلة وليلة" في شكله "العربي" الناجز كان عصر الإسلام الذهبي في العلم والأدب قد انقضى"!!

هكذا مرت الحضارة العربية الإسلامية في أطوار التراجع عن طبيعتها المميزة لها، وأصالتها الفعالة في لغتها ودينها وأعرافها، وهي تتعرض للتناقص والذبول والمسخ داخل أشكال "شرقية" تحت الهجمات الفارسية المستمرة بالمتعة والزندقة والفلسفة والابتداع حتى تحولت إلى هذا الرفات الشرقي الذي لا يزال يحمل في ميراث قتلته اسم الحضارة العربية الإسلامية، والتي يحسب المستشرقون من بينها إلى اليوم أشهر كتاب لحياة "الانحلال الجنسي" الذي تعلق الأوربيون من بقايا تلك الحضارة الشرقية غير العربية.. وهو "ألف ليلة وليلة:"..!

وفي مقابل ذلك تمامًا كان إشراق الحضارة العربية بمقوماتها التعبيرية في اللغة، والمنهجية في العلم، على الشعوب الأوروبية في عصورها الوسطى – هو أثر من يجود بدمه الزكي لإحياء الميت المخدر فوق الجليد، وإن كان هو عدوه التاريخي.. الذي استباح أرضه وحقوله وكرومه ألف سنة قبل الإسلام.!

كان ملوك أوروبا قبل العرب لا يحسنون كتابة أسمائهم، وعاش الأوربيون إلى فترة طويلة يكتبون الحساب على الطريقة الرومانية الهجائية قبل أن ينقل إليهم العرب الأرقام الهندية بعد التعديلات الإسلامية التي أدخلها العرب عليها، ومنها اختراعهم "الصفر" الذي لا يزال يحمل اسمه العربي في لغات أوروبا المعاصرة، بينما كانت الفلسفة اليونانية تتخبط في التيه التجريدي حيث كان الفلاسفة الكبار بسذاجة القروي الذي لا يقرأ الكتب حين يقرأها إلا بالمقلوب – يفكرون في هذا العالم من نقطة يفترضونها خارج هذا العالم. لقد كانوا منذ العشرة قبل سقراط، ثم سقراط وأفلاطون وأرسطو ومن بعدهم – يهرفون بظنونهم حول تصور الحقيقة، بعيدًا عن تصور أنفسهم متحركين في واقع متحرك.. لقد كانوا

يبتلعون مشاهد العالم المتحرك من حولهم ليفكروا فيها داخل الوجود الساكن في أنفسهم.. وهكذا ظل أرسطو أسطورة.. حتى جاء المنهج العلمي العربي الإسلامي فظهرت الأسطورة في ضوئه أكذوبة.. وعندما تحررت أوروبا من الأسطورة والأكذوبة الأرسطية وأشباهها بالضخ العلمي العربي.. عندما تحررت من أمثال توما الأكويني والقديس أوغسطينوس الذي كان يقول مفاخرًا "لا أعقله.. إذن فأنا أومن به" – استطاعت حتى وإن لم تستطع أن تلتفت إلى الدين الذي حمله العرب وتفهمه – أن تحقق هذا التغير الذي تجاوزت به عبر ثورات ثلاث – العلمية والصناعية والتكنولوجية – أقصى ما كانت تحلم به من القوة وإن كانت بغير الإيمان أصبحت بهذه القوة التي يقودها العدوان، كما تقودها الأسطورة العلمية الحديثة.. مهددة بالانهيار بالحرب، أو بالنفوق الحضاري الانحلالي المحتوم، في حياة مجتمعاتها المنهارة نفسانيًا، والتي أصبحت تتمزق في اغتراب جرائم كل يوم تحت سلطان المال الخمر والجنس.. وفقدان المستقبل!

وفي المؤثرات الحضارية العربية على أوروبا التي عاشت "مثلجة" في الظلمات تنتظر بصيص النور العلمي، ودفء العطاء الحضاري من أمة مؤمنة مهتدية يقول "حتى" عن مشاعل العرب التي اخترقت ظلمات أوروبا حتى في ساعات الاحتضار لحضارتهم الإسلامية، وعن نطف الحياة الجديدة التي دفعتها هذه الحضارة العربية في أحشاء وترائب تلك الشعوب الأوربية المكبلة تحت أقدام الملوك وبائعي صكوك الغفران.. بكماء لا تنطق.. وصماء لا تفهم:

"وفي ختام القرن الثالث عشر كان قد تم نقل العلوم العربية إلى أوروبا، بعد أن شقت التيارات الفكرية الممتدة من أبواب طليطلة طريقها عبر جبال البرانس، وعرجت حتى بلغت بروفانس، ومضايق الألب، ثم

اجتازتها إلى اللورين فألمانيا وأوروبا الوسطى، وعبرت الخليج إلى انجلترا. وأصبحت مرسيليا وتولوز وأربونة ومونبلييه من مدن فرنسا الجنوبية مراكز هامة للفكر العربي. أما في شرق فرنسا فإن بلدة كلوني التي آوت في ديرها الشهير عددًا من الرهبان الأسبان كانت في القرن الثاني عشر مركزًا هامًا لنشر العلوم العربية. وباتصال العلم العربي باللورين في القرن العاشر أصبحت تلك الناحية مركزًا علميًا طوال القرنين اللاحقين. وغدت لياج وجورز وكولون وسواها من مدن اللورين أخصب تربة لنمو العلوم العربية. ومن اللورين سرت موجة الدراسات العربية إلى سائر أنحاء ألمانيا، ومنها انتقلت إلى انجلترا النور مندية بواسطة علماء ولدوا وتثقفوا عربيًا في اللورين.. وهكذا تخللت العلوم العربية الأندلسية سائر أنحاء أوروبا الغربية..".

وهذا فقط هو تصور لواحد من عشرات الطرق التي دخلت بها الثقافة العربية العالمية الأخلاقية إلى أوروبا من جميع الجهات شرقية وجنوبية وغربية.

ولكن "فيليب حتى" لا يكتب تاريخ العرب في قيد استشراقه في الضوء الصحيح.. ولا يفهم.. أو لا يجرؤ أن يفهم ويتكلم في هذه الحقائق البديهية التي نرى بها احتضار الحضارة العربية الإسلامية عند نهاية ظهور اسمها على كتاب الجنس الفارسي "ألف ليلة وليلة" كأنه حياتها ورفاهتها ومجدها.. والتي نرى بها حياة أوروبا الميتة تحت جليدها، ومظالمها، وقذر حياتها، التي لم تعرف الحمامات قط قبل العرب.. نرى بها الحياة تعود، والدماء تجري في الجسد الأوروبي المتورم والباهت، بعد حقنه بالمعقولات والعلوم العربية، ونماذج الحياة الآدمية الإنسانية، ومشاعر النبل الفعلي، واحترام المرأة، والرحمة بالضعيف، وإنشاء الجامعات، وانتشار الثقافة

ومعها صناعة الورق التي كان أول ظهورها في أوروبا في الأندلس – وذلك بعد القرون القصيرة التي تخللت فيها الحضارة العربية بفيض حيويتها، وهدايتها العلمية، وكنوزها التراثية الحضارية، وآدابها الإسلامية، إلى أرض الظلام والجليد والعدوان.. فتمضي من عصر النهضة متطورة بوسائل القوة المادية وحدها – ومعها العدوان الأوروبي والاستعمار – حتى العصر الحديث..!

إن الفارق كبير ومذهل بين تخريب الفرس والروم لحياة العرب.. وبين بناء العرب لحياة الفرس والروم وأوروبا بأجمعها، وعطائهم الحضاري العلمي غير المحدود لهذه الشعوب..

ومع ذلك فإنه يوجد بيننا اليوم من المتأدبين الصغار والكبار من يصدقون أقوال أولئك المستشرقين المأجورين على الكذب مثل المستشرق الإنجليزي إدوارد لين الذي يرى أن كتاب "ألف ليلة وليلة" بكل ابتذاله الجنسي، وسفهه الشرقي، وشذوذه الساساني، وتخريبه الجهشياري كتاب عربي.. بل كما يقول هذا المغيب عن وعيه أن ما فيه من قصص يمثل عادات العرب.. وطبائعهم!!.. ثم يزف البشرى للعرب المعاصرين – وهو يلبس سراويل الكذب الشرقية – بأن ما في هذا الكتاب "العربي" يحمل بعناصر قصصه وحوارها كل مقومات المسرح بالمعنى القديم والحديث!!

وهذا المستشرق المهزوم الذي ترجم إلى الإنجليزية بالفعل هذا الكتاب الفارسي إلى الإنجليزية، والذي نشر مناخ الاتهام للعرب في أوروبا ولحساب الصهيونية بأن ما في هذا الكتاب من – مباذل لا تقع إلا في المواخير ودور سينما الجنس الأوروبية – هو مرآة حياة وطباع وعادات العرب، ولهذا فإنه بعد أن عاش في مصر فترة درس فيها الآثار، أصابته هذه اللوثة فتخصص فيها، وكتب للمصريين كتابًا مهينًا جزاء إكرامهم

لـه مـلأه بمثـل هـذه الاتهامـات الجزافيـة المـثيرة وهـو يترجـم دائمًـا كلمـة "شـرقي" أي "فارسـي" إلى "عربـي" وسمـى كتابـه هـذا "أخـلاق وعـادات المصريين المعاصرين" أي المصريين الذين عاصروا حياته الطفيلية المأجورة ما بين سنة 1801 حتى سنة 1876.. أي قبل الاحتلال الإنجليزي لمصر سنة 1882 بست سنوات!

وهذا أيضًا يحتمله الأدباء الصغار والكبار مع الأسف في بلادنا.. من أجل أن يستدلوا من أفواه أعدائهم، وجواسيس هؤلاء الأعداء – على أن مقومات المسرح والدراما موجودة في قصص مكتوبة منذ قرون سابقة باللغة العربية.. حتى وإن كانت أساطير مترجمة عن هوية وخصائص أمة أخرى.. وحتى إن كانت هي نفثة الاحتضار الأخيرة للحضارة العربية التي أثخنتها أمثال هذه الأساطير عن حياة مستباحة أريد مثلها للعرب.. حتى جاء الطوفان المغولي فاقتلع صروح هذه الحياة..

فماذا يريدون بعد.. وقد صحا العرب من جديد.. تحت شمس الإيمان والقرآن!؟

obeikandl.com